مقدمة

اما بعد الحمد لله تعالى فهذه رسالة تشهد لمصنفها بالفضل الباهر كما يشهد النور للمصباح الزاهر . وتخبر عن ادبه الوافر كما يخبر النسيم عن شذا الروض العاطر. عثرتُ عليها في خزانة كتبي وقد توارت بالحجاب . فوجدتها آيةً في الحسن يعتبر بها ذووا الالباب واثراً من احسن الآثار القديمة لا تعادله قيمة بل درّة يتيمةً لم تزل مكنونة في الصدف . وهي مما لا يُظفَرُ به الا في نوادر الصِدف فآثرت ان اتحف بها القرآءَ من ابناءِ هذه اللغة رجاءَ ان يتدبروا بما اشتملت عليه من الحكم والنصائح والفوائد مسبوكةً في قالب الفكاهة قلائدَ من عقيان ومنظومةً في سلك الفصاحة عقوداً من جمان وفي كلام مصنفها عنها ما يغني عن زيادة البيان قال ,, هذه رسالة دعوة الاطبآء على مذهب كليلة ودمنة تشتمل على مزحٍ يبسم عن جِدّ وباطلٍ ينطق عن حقّ وخير القول ما اغنى جِدُّه والهى هزله صنفها ابو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان من امثال الحكمآءِ وكلام البلغآءِ ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق

طريقتهُ ويتناد المتعلم بسهلها لتسهيل غرضهِ فيقرب عليه تناوله ويظهر للقارئ فضل الاطبآء المهرة وعجز المتخرقين بهذه الصناعة "
وقد صدرتها بترجمة المصنف نقلاً عن كتاب عيون الانبآء في طبقات الاطبآء بياناً لفضله وتعريفاً له باصلهِ وفصلهِ ولم اتصدَّ لتغيير شيء مما جآء في هذه الرسالة الا ما اقتضاه التصحيح والتهذيب تفادياً من الفاظٍ وعبارات لا يألفها ذوق الادبآء من ابنآء هذا العصر وعلقتُ شرحاً على ما كان منها عويص الكلام ليعمَّ نفعها ويزدان بحلية الكمال طبعها والله المسئول ان ينفع بها المطالعين وهو حسبنا ونعم الوكيل

بشارة زلزل

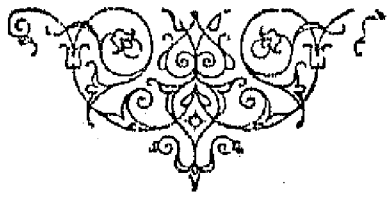

obeikandl.com

ترجمة المصنف نقلاً عن عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي أُصيبعة

ابن بطلان" هو ابو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان نصراني من اهل بغداد وكان قد اشتغل على ابي الفرج عبدالله بن الطيب وتلمذ له واتقن عليه قراءة كثير من الكتب الحكمية وغيرها ولازم ايضاً ابا الحسن ثابتاً بن ابرهيم بن زهرون الحرّاني الطبيب واشتغل عليه وانتفع به في صناعة الطب وفي مزاولة اعمالها. وكان ابن بطلان معاصراً لعلي ابن رضوان الطبيب المصري وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة ولم يكن احد منهما يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً الا ويردُّ الآخر عليه ويسفهُ رأيهُ فيهِ وقد رأيت اشياء من المراسلات التي كانت فيما بينهما ووقائع احدهما بالآخر. وسافر ابن بطلان من بغداد الى ديار مصر قصداً منه الى مشاهدة عليّ بن رضوان والاجتماع به. وكان سفرهُ من بغداد في سنة ٤٣٩ ولما وصل في طريقه الى حلب اقام بها مدة واحسن اليه معز الدولة ثمال ابن صالح بها واكرمه اكراماً كثيراً وكان دخوله الفسطاط في مستهل جمادى الآخرة من سنة ٤٤١ واقام بها ثلاث سنين

وذلك في دولة المستنصر بالله من الخلفاء المصريين وجرت بين ابن بطلان وابن رضوان وقائع كثيرة في ذلك الوقت ونوادر ظريفة لا تخلو من فائدة. وقد تضمن كثيراً من هذه الاشياء كتاب ألفهُ ابن بطلان بعد خروجه من ديار مصر واجتماعه بابن رضوان ولابن رضوان كتابٌ في الرد عليه وكان ابن بطلان اعذب الفاظاً واكثر ظرفاً واميز في الادب وما يتعلق به ومما يدل على ذلك ما ذكرهُ في رسالته التي وسمها «بدعوة الاطباء» وكان ابن رضوان اسود اللون ولم يكن بجميل الصورة ولهُ مقالةٌ في ذلك يردُّ فيها على من عيرَّه بقبح الخلقة وقد بيّن فيها بزعمه ان الطبيب الفاضل لا يجب ان يكون وجههُ جميلاً. وكان ابن بطلان اكثر ما يقع في عليّ بن رضوان من هذا القبيل واشباهه ولذلك يقول فيه في الرسالة التي وسمها بوقعة الاطباء

فلما تبدّى للقوابل وجههُ نكصنَ على اعقابهنَّ من الندم

وكان يلقبه بتمساح الجن وسافر ابن بطلان من ديار مصر الى القسطنطينية واقام بها سنة وعرضت في زمنه اوباء كثيرة «ونقلت» من خطهِ فيما ذكرهُ من ذلك ما هذا مثاله قال «ومن مشاهير الاوباء في زماننا الذي عرض عند طلوع الكوكب الآثاري في الجوزاء من سنة ٤٤٦ فان في تلك السنة دُفن في كنيسة توما بعد

ان امتلأت جميع المدافن التي في القسطنطينية اربع عشرة الف نسمة في الخريف فلما توسط الصيف في سنة ٤٤٧ لم يوفِ النيل فمات في الفسطاط والشام اكثر اهلها وجميع الغرباء الاَّ من شاء الله وانتقل الوباء الى العراق فاتى على اكثر اهله واستولى عليه الخراب بطروق العساكر المتعادية واتصل ذلك بها الى سنة ٤٥٤ وعرض للناس في اكثر البلاد قروح سوداوية واورام الطحال وتغير ترتيب نوائب الحميات واضطرب نظام البحارين فاختلف علم القضاء في تقدمة المعرفة... وبعد ذلك كلام على ما كانوا يعتقدون من تأثير الاجرام في حدوث الاوبئة الى ان نقل اسماء جملة من مشاهير العلماء الذين فقدوا بالاوباء العظيمة في زمانه في مدة بضع عشرة سنة منهم الأجل المرتضى والشيخ ابو الحسن البصري والقضاة الماوردي وابن الطيب الطبري ومهيار الشاعر وابو العلاء المعري وابو الحسن الصابي وابو الفتح النيسابوري . وصاعد الطبيب وابو الفرج عبدالله ابن الطيب ،، اقول ،، ولابن بطلان اشعارٌ كثيرة ونوادر ظريفة وقد ضمن منها اشياء في رسالته التي وسمها بدعوة الاطباء وفي غيرها من كتبه وتوفي ولم يتخذ امرأةً ولا خلف ولداً ولذلك يقول من ابيات

ولا احدٌ ان متُّ يبكي لميتي سوى خلسي في الطب والكتب باكيا

ولابن بطلان من الكتب كتاش الاديره والرهبان . كتاب شراء العبيد وتقليب المماليك والجواري . كتاب تقويم الصحة . مقالة في شرب الدواء المسهل . مقالة في كيفية دخول الغذاء في البدن وهضمه وخروج فضلاته وسقي الادوية المسهلة وتركها . مقالة الى عليّ ابن رضوان عند وروده الفسطاط سنة ٤٤١ جواباً عما كتبه اليه . مقالة في علة نقل الاطباء المهرة تدبير اكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالادوية الحارة الى التدبير المبرّد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدماء في الكنانيش والاقراباذينات وتدرجهم في ذلك من العراق وما والاها على استقبال سنة ٣٧٧ الى سنة ٤٥٥ وصنف ابن بطلان هذه المقالة بانطاكية في سنة ٤٥٥ وكان في ذلك الوقت قد أُهّل لبناء بيمارستان انطاكية . مقالة في الاعتراض على من قال ان الفرخ احرّ من الفروج بطريق منطقية الفها بالقاهرة في سنة ٤٤١ . كتاب المدخل الى الطب . كتاب دعوة الاطباء الفها للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان ونقلتُ من خط ابن بطلان وهو يقول في آخرها : فرغت من نسخها انا مصنفها يوانيس الطبيب المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون بدير الملك المتنيح قسطنطين بظاهر القسطنطينية في آخر ايلول سنة خمس وستين وثلاثماية والف

(١٣٦٥) هذا قوله ويكون ذلك بالتاريخ الاسلامي من
سنة ٤٥٠. كتاب وقعة الاطباء . كتاب دعوة
القسوس . مقالة في مداواة
صبي عرضت له حصاة

م

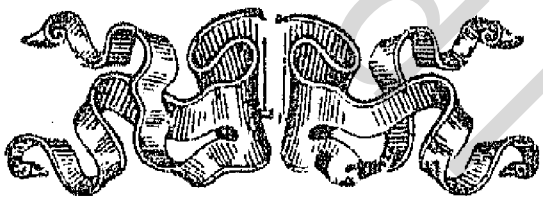

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة دعوة الاطباء على مذهب كليلة ودمنة تشتمل على مزح يبسم عن جد وباطل ينطق عن حق ، وخير القول ما اغنى جده والهى هزله ، صنفها ابو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان (١) من امثال الحكماء وكلام البلغاء ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق طريقته وينقاد

(١) هو ابو نصر احمد بن مروان بن دوستك الكردى الحميدى الملقب صاحب الدولة نصر الدين صاحب ميافارقين وديار بكر ملك البلاد بعد ان قتل اخوه ابو سعيد منصور بن مروان فى قلعة الهنتاج ليلة الخميس خامس جمادى الاولى سنة ٤٠١ وكان رجلاً مسعوداً عالى الهمة حسن السياسة كثير الحزم قضى من اللذات وبلغ من السعادة ما يقصر الوصف عن شرحه وحكى ابن الازرق الفارقى فى تاريخه انه لم ينقل ان نصر الدولة صادر احداً فى ايامه سوى شخص واحد قص قصته ....عاش ٧٧ سنة وكانت امارته ٥٥ سنه

نقلا عن ابن خلكان

المتعلم بسهلها الى تسهيل غرضه فيقرب عليه تناوله ،ويظهر للقارىء فضل الاطبآء المهرة وعجز المخرقين بهذه الصناعة وهي اثنا عشر قسماً

الاول منها في فاتحة الكتاب ومدح بغداد وذم ميافارقين لما فيها من الكساد. الثاني في ذكر مجالس الطعام وايراد الحجج التي تحمي عن الاكل فيما يقدم من الالوان. الثالث في نعت مجلس الشراب واللذة وذكر ما جرى من المسائل الرابع في اعتبار الطبائعي بمسائل توضح فضله وتظهر جهله الخامس في سؤال الكحال عما لا يسعه جهله السادس في اعتبار الجراحي بمعرفة التشريح والمنافع. السابع في امتحان القاصد بما يحتاج الى معرفته من المنافع. الثامن في اعتبار الصيادلة بمعرفة المقاقير والادوية التاسع في غيرة الاطبآء وتغايرهم على المرضى. العاشر في اعتذار الطبيب المضروف وذم الصارف له. الحادي عشر في استهانة العامة بالصناعة الطبية والرد عليهم. الثاني عشر في خاتمة الكتاب وذكر سبب

انقطاع الزيارة والاجتناب ونسأل الله ان يوفقنا لدرك الاغراض الصحيحة ،والالفاظ الفصيحة ، ليكون ماتأتي به مالكاً لرضى من حث على نظم منتثره وجمع منتشره ، انه جواد مجيد قريب مجيب .

الاول في فاتحة الكتاب

قال بعضهم لما دخلت ميافارقين سألت ممن بها من المتطببين.فارشدت الى دكة بالعطارين عليها شيخ من ابناء السبعين. مرهف الشمايل حلو الدعابة عذب الفكاهة حسن المعارضة متميز عن اضرابه متشبث باذيال الادب ذو براعة في صناعة الطب فلت نحوهُ مسلماًفرد عليّ السلام.واوسع لي المكان وتلقاني بالاكرام والاعظام . وقال من انت قلت غريب رمت بي الاقدار الى هذه الديار.قال وما صناعتك قلت طبيب .قال انفع الصنائع، واربح البضائع ، ومن اين اقبلت قلت من بغداد.قال بغداد سرة الدنيا وقطب الارض

وعرصة الادب ومعدن الفضل ودار السلام وحضرة الامام وقبة الاسلام وانشد

احبُّ الحلولَ بتلك الطلولِ وجرَّ الذيولِ بذاك المقام

دخلتها قديماً لطلب العلم وزمانها كالربيع المرع وايامها كالاعياد والجمع ، وترابها اثمد تكتحل به الاحداق. وحصاها در تقلد به الاعناق. وبضائع العلماء قائمة المواسم والاسواق ولقيت بها ابن الخمار وابن عبدان ونظيف بن يمن القيس وابن نكس وابا الوفاء المهندس ، قلت له لِمَ رحلت عنها أملت المقام بها فانشد

لعمركَ ما فارقتها عن قلىً بها واني بشطَيْ جانبيها لعارفُ

قلت فكيف سمحت نفسك بمفارقة هؤلاء الفضلاء وهم كانوا لك الغرض الاقصى ، فقال والله يا سيدي ما صمدت الى هذه البلد وقد بقي من القوم احد قلت ثم ماذا قال

ثم انقضت تلك السنونَ واهلها فكأنها وكانهم احلامُ

ويحزنُ عليَّ ما فعل الدهر باوائك الانجم الزهر فقد فقد والله العلم بفقدهم ومات الفضل بموتهم ، ولعلهم ياسيدي لو عاشوا الى زماننا هذا لماتوا قبل اوانهم قل الطالب وزهد الراغب وصارت الكتب تباع على العطارين للحوائج وعلى الذهبيين للسفاتج وعلى الملاحين للمزاود هذه والله صناعة دثرت وخمدت نارها وطفيت وصار المتعرض لها غرضه التكسب لا التطبب وقد قيل انه بالحكمة تطبُّ الابدان وبالدراهم تمرض الحكماء فاذا رأيت الطبيب يجر الداء الى نفسه فمتى يداوي غيره شعر

وهل يرجى لذي سقمٍ شفاءٌ اذا ما كان مسقمهُ الطبيبُ

ثم قال لي فانت لمَ لم تقم ببغداد فقلت شعر

تقيم الرجالُ الاغنياءُ بارضهم وترمي النوى بالمعسرين المراميا

اما سمعت قول الشاعر

بغداد دارُ لاهل المالِ طيبةٌ وللمفاليس دارُ الضنكِ والضيقِ

ظلتُ حيرانَ امشي في ازقتها كأنني مصحفٌ في بيتِ زنديق

قال صدقتَ ولكن عرفني لمَ قصدت هذه الديار قلتُ لزيارة غمر الزعفران ونيتي الارتسام بالطب ان طابت لي هذه البلاد. فاضطرب لعزيمتي وقال هيهات يا هذا لأن تسمع بالمعيدي خير من ان تراهُ ، خاب والله سعيك ، وكبا زندك ، وليتني كنت مثلك خالي العذار فاهرب من هذه الديار ، فما يتأتى لي بها مقام لانني وردت اليها وبها قوم يحسن عليهم الثناء ويقبح عند تقريظهم الاستثناء ، ان اجتمعوا حسبتهم جوهراً منظوماً ، واذا تفرقوا خلتهم لولواً منثوراً

شعر

من تلقَ منهم تقلْ لاقيتُ سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

قلت فما فعل الدهر بهم قال ماتوا والله هم واولادهم وغلمانهم ولكن بعد ما اتعبوا خاطري واسهروا ناظري في علاجهم الى ان قضى الله بموتهم فلله درهم وسقى صوب الغمام

قبورهم فانهم كانوا كفوني مؤونة الزمان مدة حياتهم وكنت في تضاعيف برهم لا اخلو من صبية تقطم اوغلام يختن او مفصود اول فصادة او مريض ادخله الحمام دع هدايا الاعياد والنواريز وما يتحصل من زبون الدكان فانه ما كان يموت لي مريض الا وقد مرض لي عوضه اثنان فانا في تضاعيف ذلك في فلك من العجب والتجمل كأني قرواش بن المقلد او ملك ميافارقين وآمد . واليوم اذا انقطع الوتر فصدنا عرقين بدانق . ولولا ان عندي بقية من موسم سنة الخوانيق ارمق بها والا كنت من الهالكين . واظرف من هذا باسره انه كان في كل خريف تكثر الامراض . وفي كل خمس سنين يعرض وبآء وموت . فمنذ يوم ملك بن مروان هذه الديار كسدت الصناعة وبارت البضاعة وصحت الاجساد وانكشف الوبآء عن هذه البلاد وانقطعت غلة الخوانيق . وكانت قل ما فارقت الحلوق . وبطلت

الامراض الخريفية وكان موسماً مالوفاً معروفاً فصرنا لا نرى مريضاً الا في كل حين ولا نشاهد جنازة الا في كل زمان بعيد ولا نسمع صراخاً الا في كل دهر مديد حتى كأن اقبال الامير قد عصم الابدان من الاسقام وحصن الاعضاء من الآلام او كأنه من بين آل مروان قد اخذ للخلق من الدهر الامان. فما في الناس الا من ينشد فيه شعر الحسن بن هانىء:

علقتُ بحبلٍ من حبالِ محمدٍ أمنتُ بهِ من طارقِ الحدثانِ
تغطيتُ من دهري بظلّ جناحهِ فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو قيلَ للايام ما اسمي ما درت واين مكاني ما عرفنَ مكاني

يا سيدي ما اسعده على نفسه والناس ، وما أثقل رجله علينا منذ يوم ولي ديارنا ما يفتكر احد فينا ولا يحتاج الينا ولا يلتفت نحونا بعد ان كان الطبيب في هذه البلد اعزّ من جبهة الاسد ، اليوم جمهور الحفارين والحمالين قد بعدوا عن هذه الديار وتشتتوا في القرى والامصار. واشتغل اكثرهم

بالزروعات وسوق المجل والفدان . ونقل الجبصين من رؤوس الجبال الى البلدان. وربما يلقاني البطال منهم فاسكن منه لوعتهُ ويقول ربما عاد ذلك الزمان شعر

عسى الايام ان يرجعن قوماً كما كانوا على اقصى المرادِ

يا سيدي عن اي شيء اخبرك من تلك الايام . والله لقد كانت تخرج الجنائز الى المقابر بالثياب الديباج كأنها زهر البستان ولقد عدَّ في يوم من ايام الوبآء ما قد خرج من باب واحد من الجنائز فكان مايتي جنازةٍ ممن كنت اطبهُ انا سوى من كان يطبهُ هذا الطبيب الذي في جواري وكانت تقف لي كل يوم على باب داري خمسون بغلة من بغال الجند والكتاب سوى رسل التجار ومن تلك السنة صرت آتيهَ من عمارة بن حمزة واعزّ من عمر بن مهدي كرب فمن لنا بذلك الموسم وانشد

قد ذقتُ منهُ ما ليس يبلعهُ ابو الحسين القلاَّع من ضرمي

يا اخي اين كنت واهل هذه البلاد لا ترى فيهم صحيح

المزاج ولا مستغنياً عن التداوي والعلاج . والجنائز تجلى كالعرائس وتحط على المقابر كالنجوم الزواهر . واصوات الصوائح في المآتم والنوائح كترنم المزاهر . واصطخاب الآلات والمزامر . ومغسلوا الموتى لا يوصل اليهم الا بالملاطفات . والاطباء يتزاحم على دكاكينهم بالمهاري والبغلات اليوم وحتك الناس متشاغلون بتصفية القناني . والاقداح واختيار الملاهي والغواني . والضرب على المثالث والمثاني والغناء بشعر الحسن بن هاني :

قد علقنا من الامير حبالاً أمننا طوارقَ الحدثانِ

يا سيدي اي شيء تعمل في هذا البلد والله اني ابقى اليوم والشهر لا يسألني انسان حاجة ولا تجتاز بي جنازة . واذا سهل الله وجاءنا مريض كان كما قال المثل اذا كسد اصحاب القلانس جاءهم زبون معوجوا الرؤوس . وقد والله ياسيدي سئمت نفسي هذا البلد وملني اهله . لان الماء اذا

وقف ظهر نتنهُ . واذا كثر لبثهُ ظهر خبثهُ . ولقد حدثتني نفسي دفعات بالخروج منه ثم اقول الى اين اخرج ولمن أقصد واين اتقرب وما بقي اقل مما مضى ومع اليوم غدا وما يقعدني الا الالف . والزمان كلما مرّ جآء الى خلف. كلُّ هذا غرضهُ ان ينفض لي المقام . ثم قال حدثني ما تعمل في غمر الزعفران . قلت يا سيدي سمعت جالينوس يقول ان قياس طب الهياكل الى طبنا كقياس طبنا الى طب الطرقات . وانا رجل ضعيف المعدة ناقص الشهوة . وما ابقيت دوآءً الا شربتهُ وما نفعني وقد وصف لي ان في هذا الغمر رجلاً من فضلاء الرهبان الذين رأوا الدنيا بعين الحقيقة فاطرحوها عن خبرة بها فانا امضي للقآئهِ والتبرك بدعائه . فضحك الشيخ مني حيناً وقال ما اشبه هذا منك الا برجل رمدت عيناهُ فلقيهُ صديق لهُ فقال لهُ ارى وجع عينيك قد طال فبماذا تعالجهما قال بدعآء الوالدة فقال لهُ لو اضفتَ اليه قليل انذروت لكان اسرع في الاجابة.

وكذلك انت لو اقتضت عن دعآء الرهبان بمعجون الزامهران كان ابلغ في تقوية المعدة وتنبيه الشهوة . وهذا دوآء عندي عملتهُ لنفسي وانا اواسيك منهُ بما تنتفع به . هات عرفني كيف هضم معدتك للطعام وكم مقدار غذآئك في هذه الايام . قلت اما شهوتي فعلى غاية التقصير وغذآئي نزر يسير . فلما نظر الشيخ مني الى ضعف المعدة وقلة الشهوة قال أتقوم الى البيت يافديتك لنأكل شيئاً ونتحدث فقد آنست بك لانك لست من اهل هذا البلد فتخرج حديثنا الى احد . وقلما آنستُ بانسان . وما انا مع الاخوان والاصحاب الا كلمع السراب .

عدوكَ من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصحاب .
لان البلآء اكثر ما تراهُ يكونُ من الطعام او الشرابِ

فتمنعت وحلفت لهُ اني قد اكلت فالح عليَّ فقمت الى دارهِ وجلسنا ساعة نتحدث واذا الغلام قد اتى بطبق عليه منديل وفوقهُ خبز وخل وبقل فلما وضعه بين ايدينا قال :

وما الخصب للاضياف ان تكثر القرى * ولكنما وجه الكريم خصيبُ
أضاحك ضيفي قبل انزال رحله * فيخصب عندي والمحلُّ جديبُ

ثم قال يا سيدي نحتاج ان نعتذر فالعامة تقول اذا طرقت فما حضر واذا دعيت فلا تذر، ولكن الايام طوال. واخذ رغيفاً وقال ، رحم الله العجوز لقد كانت لها عناية حسنة بالخبز وهي علمت هذا الغلام يخبز هذا الخبز كل يا سيدي فانه مغسول الحنطة، مختمر العجين . معتدل الملح خلنجي الظهر . مورد الوجه . علك المضغ . سريع الهضم ملائم الجسم ثم اخذ طاقة هندباء وقال اعلم يا سيدي ان الهندباء انواع اجودها الرقيقة فانها خير من غيرها واصلح في اصلاح الكبد واسرع في تفتيح السدد وكثيراً ما سقي ماؤها مع الراوند انظر ياسيدي الى عرض ورقها وصفاء خضرتها وتطم عذوبة طعمها ورطوبتها وبردها لا سيما اذا اكلت فخيرٌ ان تؤكل مع هذا الخل الثقيف انظر اليه فما معولي في دفع الصفراء الا عليه . ولكن لا حيا الله هذا

الغلام فانه غلط منذ ايام وقدم اليّ منهُ شيئاً قليل المزاج فاكلت منه شيئاً على اغترارٍ بهِ فما ان حصل منه يسير على لساني حتى طار الى حلقي ورأسي فبادر رعافي وسالت دموعي واتصل بي السعال وبقيت متألماً عدة ايام. ثم قال كل منهُ واحذرهُ. فلما همت بالاكل قال ألست على النية في الحمية قلت لعلي اختار يوماً لذلك. قال اعظم من الذنب اليأس من الرحمة واشد من الخطيئة المماطلة بالتوبة وشرٌّ من المرض التسويف بالحمية. وقد قيل ان الشفيع المتخلف عدو طالب الحاجة والطبيب المهتجم رسول ملك الموت والمريض المخلط كدودة القز التي كلما ازدادت نسجاً ازدادت من الحيوة بعداً قلت يا سيدي انا والله كاره للحمية فقال لعمري ان الحمية صعبة ولكن افضل الاعمال ما اكرهتْ عليهِ النفوس وفيثاغورس يقول من ساس معدتهُ فقد قرب جميع الاعضاء من الاعتدال وانت تحكم الصناعة ما كنت اظنك تحتاج الى بعض هذا فانهُ قبيح

بالطبيب ان يرى مخلطاً كما انه قبيح بالفقيه ان يكون فاسقاً فاستخر الله وامض العزيمة في الحمية وانظر الى الغذاء نصورته اذا استحال في غده فما احسن ما قال سقراط وقد اجتاز على كساح قد اخرج من حشّ كساحة (١) يا اهل أثينا هذا الذي كنتم تقلقون عليه ابوابكم وتقيمون لحفظه الخزان وكانت شهواتكم تستخدم عقولكم في اعداده اليوم نفوسكم أنفة منه وطباعكم نافرة عنه . وحواسكم مع هذا ايضاً تروم مثل ما كان هذا عنه . ثم قال كل وتدبر بما قد سمعت فان هذه النصيحة متلقاة بالتحية وهذه الموعظة موشحة بالحكمة . فلما بدأت بالاكل أمسك يدي وقال اسمع كلاماً ينفعك فيما شكوت ويقرب عليك صحتك اعلم ان مداواة الامراض ضبط الشفتين والرفق باليدين واخذ المريض نفسه بموجب العقل لا بدواعي الهوى والجهل فان

(١) الكساحة ما يكنس من زبالة ونحوها والحش البستان ويكنى به عن المستراح

العقل يلتمس من الاغذية انفعها والهوى يطلب من الاطعمة اشهاها والذها وقلما يجتمع في الشيء النفع واللذاذة فان النفع قلما يكون في الغذاء واللذاذة قل ما توجد في الدواء فاياك ان تتلذذ بحلاوة الغذاء فتتغنص بمرارة الدواء وانشد

فان المرّ حين يسرُّ حلوٌ ... وان الحلوَ حين يضرُّ مرُّ
فخذ مراً تصادف منهُ نفعاً ... ولا تعدلْ الى حلو يضرُّ

واياك ان تؤثر لذة عاجلة فانها على المرء مضرة آجلة لاسيما وانت مريض وقد امتلأت من الغذاء .قلت يا سيدي قد انهضم وانا مشتهٍ للطعام فقال جوع كذاب وشهوة كالسراب وانشد

وللهضوم مواقيتٌ مقدرةٌ ... وكلُّ شيءٍ لهُ حدٌّ وميزانُ
فلا تكنْ عجلاً في ما تحاولهُ ... فليس يحمدُ قبل النضج هجرانُ

قلت فما رأيك في التقدير قال الراي التوقف فان الداء الدوي ادخال الطعام على الطعام وهو الذي افنى البرية

وقتل السباع في البرية فان التخمة اذا بقيت اتلفت واذا تحللت ضعفت وبقراط يقول لا تغترّ بامرٍ جرى على غير القياس مثل جوعٍ يجده المريض قبل النقاهة. قلت يا سيدي اما تعلم ان القدماء يقولون ان القوة للمريض كالزاد للمسافر والمرض كالمسافة ولهذا يجب ان لا يهمل الطبيب امر القوة خوفاً من سقوطها قبل منتهى المرض. قال وما علمت ان بقراط يقول ان الابدان غير النقية كلما غذوتها زدتها شرًّا قلت صدقت ولكن القدماء ايضاً يقولون ملْ مع المريض في بعض شهواته فان الطعام الشهيّ وان ضرّ خير من غير الشهي وان نفع. قال الشيخ هذا صحيح الا ان القدماء ايضاً يذكرون انّ الابدان المملوءة بالفضول تحيل الاغذية وان كانت جيدةً الى طباعها. قلت وقد قالوا ايضاً اطرح العلاج بالدواء ما امكن التدبير بالغذاء. قال الشيخ الذي اعلم انك رجل معدتك رديئة واحشاؤك ليست نقية ولا آمن عليك ان دنوت من الطعام ان تقع في بلية

قلت يا سيدي انا آكل واستمين بالله . قال الشيخ لاحول ولا قوة الا بالله . اذا انقضت المدة كان الحيف في المدة فاضربت عن كلامه ثم همت بالاكل فقال الشيخ مهلاً مهلاً اعلم شفاك الله ان صورة العلم عند العقل كصورة الغذاء عند الجسم الا ان برداءة الغذاء يهلك الجسم ويهبط هو والنفس الى اسفل السافلين وبحقيقة العلم تصفو النفس وتستصحب معها الجسم الى عليين ومقر الروحانيين ومقام العز ومعدن البهاء والفوز . والحكيم بقراط يقول ليس بالخبز يحيى الانسان بل بكل كلمة طيبة وسقراط يقول ان احببت ان تأكل فلا تاكل حتى تأكل . وافلاطون يقول آكل لاعيش لا أعيش لآكل فاياك ان تهجم على الاكل لكن تأنّ وتمهل وكن كالخياط الفارة (١) الذي يقدر الف مرة حتى يقطع فما في العجلة خيرٌ وخذ بقول الاول

قد يدرك المتأني حسن حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزللُ

(١) الفاره الحاذق والماهر النشيط

قلت له ولمَ لا آخذ بقول الثاني

وربما فات قوماً جلُّ امرهم من التأني وكان الحزمُ لو عجلوا

قال فاذا عزمت على الاكل فصغر اللقم وقطعها بالثنايا وكسرها بالانياب واطحنها بالاضراس وقلبها باللسان وابلع سحيقها واعد الى طحن الاضراس جريشها وقدّم البقول على الثرايد (١) واذا اكتفيت بالثرايد فلا تعدل الى التوابل (٢) وانشد

فالنفسُ راغبةٌ اذا رغّبتها واذا تردُّ الى قليلٍ تقنع

واياك واللحمان فسقراط يقول لا تجعلوا بطونكم مقبرة للحيوان وجالينوس يقول اجهل الناس من ملأ بطنه من كلما يجدهُ . واعتمد على مقاومة الصفراء بالاشياء الحامضة والبلغم بالطعوم المالحة والسوداء بالثرائد الدسمة . واعلم ان الصفراء كالصبي الصغير ترضيه الثمرة وتسخطه الكلمة

(١) جمع ثريدة وهي فتات الخبز في المرق

(٢) جمع تابل وهي ابزار الطعام اى مايطيب به الغذاء من الاشياء اليابسه كالفلفل والكمون

والسوداء كالثور يسوقه الصبي والمرأة واذا غضب لم يضبط والبلغم كالسبع ان قُتل والا قَتل فاقهر البلغم قهرك عدوك واخضع للصفراء خضوعك لمن فوقك وسالم الدم مسالمتك صديقك وجاهد السوداء مجاهدتك عدوك واختصر يا سيدي من كثرة الالوان فان الالوان المختلفة الطباع تحتار المعدة في هضمها وتعجز القوة عن احالتها ولا تأكل ما يكدُّ اسنانك في مضغه فتعجز معدتك عن هضمه . واجعل يا سيدي ما يرد الحشى اثلاثاً ثلثاً طعاماً وثلثاً شراباً وثلثاً نفساً واختصر من الغذاء فما يساوي الدنيا التردد الى بيت الخلاء وقلل من شرب الماء البارد في تضاعيف الغذاء وغلب العقل على الهوى فانه قلَّ من غلب هواهُ على عقله فلم يعطب وقل من حرص على النساء فلم يفتضح وقل من ابتلي بوزراء السوء فلم يهلك وقل من اكثر من الطعام والشراب فلم يسقم وجعل الشيخ يمرُّ في ضرب من هذا الفن ليشغلني عن الاكل فلما اطال كلامه واتسع

في الهنديان ميدانهُ اضربت عن كلامهِ صفحاً واقبلت على الاكل فامعنت في الحل والبقل وهو لا يستزيد اداماً ولا يستدعي طعاماً حتى خيل لهُ انني قد شبعت وتصور انني من الحل والبقل قنعت فقال لغلامه ارفع هذا عنا وقرب الشواء منا . فقدم الغلام حملاً مشوياً فمددت يدي الى الاكتاف فقال اياك واياها فانها تقبل من القلب الفضلات فملت نحو الزّور فقال لا تتعرض له فانه بطيء الهضم فعدلت الى الكلى فقال هذه معدن البول ومانية الدم فاومأتُ الى الاخفاذ فقال انها مجاورة للمعى والبراز فاستأذنته في الالية فقال الله في نفسك فانها وخمة رديئة تميت الشهوة وتحدث الهيضة فقلت فعلى ماذا اعتمد قال على الاطراف من العضد فهي الطف ما في الخروف لاسيما من هذا الرضيع المعلوف فاومأت الى اخذ طرف كان قريباً مني فقال تأخذ من الاطراف المؤخرة والمقاديم اشرف وتأخذ اليمنى منهما واليسرى الطف لقربها من القلب والحرارة

الغريزية وبعدها من الزبل والفضلات الردية خذ ما اعطيك وتجنب ما سواهُ فانه يؤذيك ، ثم فرك احد الاطراف اليابسة وقال هاك هذه اليمنى فان الاعتماد كان عليها في الرعي والسعي فهلم نحوها يا ابن اخي فاخذتها ثم قال لغلامه ارفعه عني عسى ان نكفي غائلته ونأمن ردآءتهُ وبليته فلبلوغ الشهوات قرائن مهلكات وعوارض مؤلمات فربَّ اكلة قد حرمت اكلات وهات ما عندك فقدم مضيرةً (١) بلحم بقر فبدأت آكل فقال اعلم وفقك الله ان الآكل يستمري الاطعمة الموافقة له ولا يستمري الاطعمة المخالفة لطبعه وهذه مضيرة بلحم بقر والقدماء ينهون عنها لمن به ما بك وعن الجمع بين لحم البقر واللبن كما ينهون عن الجمع بينه وبين السمك وهذه والله معدن المفاصل والنقرس واللقوة والقولنج والفالج فالله الله ان تحملك الشهوة على الاستضرار بهذه المضيرة . ثم قال

(١) قال الفيروزابادي المضيرة مريقة تطبخ باللبن المضيري الحامض

لغلامه ارفعها عنا ففي رفعها الخيرة لنا فاني لا آمن ان ينقاد بزمام الهوى الى مناخ الشهوة فيقع من هذه المضيرة في امراض صعبة فرفعت وقدمت ارزة بابن قد عملت تحت الحمل فتصورت انه لاشيء يرجى بعدها فدعت الضرورة الى التشبع منها فحين رآني فيها ممعناً وعلى اكلها مقبلاً تبين الغضب في وجهه فاوماً الى الغلام برفع الطبق فظن الغلام انه يستدعي منه الحلواء فقدم جاماً فيه فالوذج صحيح اللون محكم العقد فازداد غضبه وكاد يملأ الجام بتسكاب دموعه وقال اعوذ بالله من سوء ما جرت به المقادير اعلم يا سيدي انه ليس الآمر بالخير باسعد من المطيع له ولا الناصح اولى بالنصيحة من المنصوح له فاسمع نصيحتي واعلم ان الحلواء مضرة بالاسنان مبثرة للفم واللسان لاسيما اذا اتبعت بالماء البارد فان المأمون شكا وجع اسنانه الى طبيبه جبريل فقال له يا امير المؤمنين امتنع عن الماء البارد بعد الرطب (١)

(١) تضييع البسر الواحدة رطبه

والسكر فقال ويحك يا جبريل لولاهما لما اردتك واي لذة تبقى للسان اذا امتنع الانسان من الماء البارد والحلواء وخالف جبريل فيما وصف فكان من اسنانه ما قد عرف وانا استنزلك عن هذا الجام فان العاقل لا يؤثر اللذة على الصحة فعرفني على ما عزمت. قلت على الاكل والاتكال على الله فقال كأنك ان تركت الحلواء لا تتكل على الله ثم قال اعلم ان الطبيب واسطة بين الله والمريض والوسط فيه ما في الطرفين ففيه من صفات الله تعالى رحمة ومنحة ومن المريض سؤال ورغبة فغرضهُ العافية ودأبهُ اهداء النصيحة والتوصل الى صلاح كل نسمة وانشد

لو غضبت روحٌ على جسمها أصلح بين الروح والجسم
كأنهُ من لطفِ افكارهِ يجولُ بين اللحم والعظم

فلا تسيء فيَّ الظن وتنسبني في هذا القول والفعل الى البخل فانه لا بد من النصيحة لك فلا يثقل ذلك عليك فبالله اني اشتهي كثيراً اللون اللذيذ واؤثره ثم اخاف

غائلته فانهي نفسي عنهُ وربما غلبتني الشهوة فلا ازال اذكر نفسي بالآلام والاوجاع واحضر بين يدي آلات العلاج ثم قال لغلامه ارفع الحلواء وهات ما عندك فما شككت الا انهُ جام آخر ولون قد تأخر واذا طبق فيهِ كلبتا (١) الاضراس ومكاوي الطحال والراس والنشاب (٢) وصنانير السبل والظفرة وزراقات القولنج وقاثاطير التبويل وملزم البواسير ومخرط المناخير ورصاص التنقيل (٣) ومنجل الثآليل ومخالب التشهير ومحك الجرب ومنشار القطع ومهت (٤) القدح ومجرفة الاذن ومقص السلع وخشبة

(١) الكلبتان بلفظ التثنية الة من حديد يأخذ بها الحداد الحديد المحمى والكلاب حديدة معطوفة الراس جمعة كلاليب

(٢) النشاب من النشوبه وهى ما يعلق به الشيء الواحدة نشابه

(٣) كسر العظام حتى يخرج منها فراشها والفراش جمع فراشة وهى كل عظيم رقيق

(٤) الة المهت اى الكسر والفت. والقدح عملية فى العين لاستخراج الماء الازرق

الكتف وحمال الورك ومفتاح الرحم ونوار النسا (١) ومكمد الحشا ومقدح الشوصة (٢) ودرج المكاحل ومرهمدان (٣) المراهم ودست المباضع فلما نظرت اليها تنفست بالاد وتصورت البلاء والسقم فقال لي يا سيدي يجب ع الانسان الشكر لله تعالى على الصحة وان يسأله دوام العاف اليس هذا جميعه لاجل الاكل والمضغ أعد لهذا الجسد والنف كم دخلت أكلة حتى نثره فاخرجت روحه من الجس لا بارك الله في الطعام اذا كان هلاك النفوس بالمعا ثم قال لغلامه اعفنا من الطعام واعدل بنا الى الطشه والاشنان (٤) فغسلنا ايدينا واخذ مخدة واتكأ وقال هاء يا سيدي نتحدث فان ابا علي كان ينشدنا دائما

(١) النسا بالالف المقصورة عصب الورك ، والنوار آلة يغزل
(٢) الشوصه نوع من ذات الجنب
(٣) لعلها فارسية ويراد بها وعاء توضع فيه آنيه المراهم
(٤) الاشنان (يونانى) الحرض وهو الذى تغسل به الثياب ريس بالغاسول قال ابن البيطار عن البكرى هو نبات لا ورق له اغصان دقاق فيها شبيه بالعقد

ولقد سئمتُ مآربي فكأنَّ اطيبها خبيثُ
الا الحديث فانهُ مثل اسمهِ ابداً حديثُ

وبدأَ الشيخ يتمدد للحديث ويتشجع ويتكلف للنشاط ويتصنع والنشد

وتجلدي للشامتين أُريهم اني لريب الدهر لا أتضعضعُ

فقلت يا سيدي قد تعلقت بذيلك المجون ما دمت على الحمية فاسألك ان تعرفني متى آخذهُ وكم مقدار ما اتناول منهُ. فقال ما هذا حجر يحتاج قبل الطحن الى النقر ولا انت الى ما يقطع بعض شهوتك احوج منك الى ما يقوي معدتك فاعرض عن هذا وهات حدثني اي شيءٍ تحفظ من النوادر قلت اخبار ابي نواس قال ومن الشعر قلت قصيدة في التطفل قال ومن الابيات في الامثال السائرة قلت قول الشاعر :

نزورُكم لا نُعنّيكم بزورتكم انَّ الكريمَ اذا لم يُستزَرْ زارا
يقرّبُ الشوقُ داراً وهي نازحةٌ من عالج الشوقُ لم يستبعد الدارا

قال فاي شيء عانيت من المهن قلت الطبيخ قال فما الذي قرأت من الطب قلت تدبير الناقه قال فما العلة التي أدتك الى ضعف المعدة قلت الشهوة الكلبية قال فاي شيء أخرجك من بغداد قلت كان بها غلاء ولحقني بها ضرٌ فاغتاظ ونهض وكان متكئاً فجلس وانشد

بذا قضت الايامُ ما بين اهلها مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

قلت يا سيدي اذا آيستني من الدوآء أفتأذن لي ان اسألك عن شيء مما اجدهُ قال قل وارجوان يكون سؤالاً مباركاً قلت ما السبب في انني لا اقدر على شرب الشراب ولا يلائم معدتي في حال من الاحوال فاعجبهُ ما سمع من قولي وقال هذه عادة ظريفة ان تكون المعدة قويةً على الاكل وعن الشراب ضعيفة

القسم الثالث

﴿في نعت مجلس الشراب واللذة وذكر ماجرى من المسائل﴾

فلما آنس الى قولي ضحك واعتقد ان باطن هذا القول

كظاهره فقال لغلامه هات نبيذاً فاحضر طبقاً ونقلاً وخمراً فاخذ القدح وغسله وقال انظر حسن هذا القدح فانه حصل لي من نهب قصر الامارة ايام الفتنة وكان عندي احسن منه ولقلة المعيشة في هذه الشتوة احتجت فبعته وقال

وقد تخرج الحاجات يا أم مالكٍ كرائم من ربٍّ بهن ضنينِ

ولكن ايام المشمش لا بدَّ ان تأتي ونردَّ عوضه لاسيما وشتآؤنا كان كثير الجنائب(١) والمطر وربيعنا هذا شديد الاختلاف والتغير واظنها ان شآء الله سنة وبآئية ثم ملأ قدحه وقال هذه الخمرة التي كنا زماناً نشتهيها وبقراط يقول انها تسكن العطش وتشفي من الم الجوع وفيها عشر منافع خمسٌ منها تتعلق بالجسد وخمسٌ بالنفس فاما التي تتعلق بالجسم فانها تجيد الهضم وتدر البول وتحسن اللون وتطيب النكهة وتزيد في القوة واما التي تتعلق بالنفس فانها تسرُّ النفس وتقرب الامل وتشجع القلب وتحسن الخلق وتقاوم

(١) جمع جنوب وهي ريح تخالف الشمال

البخل ثم شرب وقال لغلامه امض الى تلميذي ابي جابر
الفاصد وادعهُ وممهُ عودهُ وجز بصديقنا ابي ايوب الكحال
وابي سالم الجرائحي وقل لابي موسى الصيدلاني بحياتي
عليك الا جعلتنا في هذا اليوم من احد زبونك فما كانت
هنيهة حتى حضر القوم فسلموا فرددنا عليهم السلام
وسألوا عني فاخبرهم بحالي ثم بدأ القوم يشكون مايقاسونهُ
من المعيشة ويتذاكرون ما بقي من الصيدلة فرأيت قوماً
قد لاذوا بالادب الا ان السوقية عليهم اغلب فسكتوا
ساعة ثم اخذوا في الكلام في مسئلة فقال الشيخ اليوم
خمرٌ وغداً امر ما فينا اليوم قرآءة ولا تدريس لان العلم
الدائم يكدُّ النفوس وجالينوس يقول ان الملآء محتاجون
الى ان يتركوا التفكر وقتاً ما لئلا ينهك قواهم واجسامهم
فان الاجسام آلة القوى والافعال ثم ملأ القدح وقال
لتلميذه اعلم ان القدمآء يقولون ان العود مبني على الطبائع
الاربع وان الضرب من المغني يجري مجرى المبضع من

الفاصد والاوتار كالعروق ووجه العود كالاعصاب فاياك ان تضرب ضرباً يقع ايقاعهُ خارج الاوتار واعتمد ما سمعت مني وهات غنني بشعر ابي نوّاس في استاذنا جبريل الطيب فضرب الغلام واندفع يغني منشداً

سألتُ اخي ابا عيسى وجبريلُ لهُ الفضلُ
فقلتُ الراحُ تعجبني فقال كثيرُها قتلُ
فقلتُ لهُ فقدّرها فقال وقولهُ الفصلُ
وجدتُ طبائع الانسا نِ اربعةٌ هي الاصلُ
فاربعةٌ لاربعةٍ لكلٍّ طبيعةٍ رطلُ

ثم بسطهُ

اعدلا بي عن دارسات الطلولِ وقفا بي في الربع المجهولِ
واسقياني على تصاخبِ اوتارٍ م جرى بينهنَّ خفق الطبولِ
ثم جسّ الاوتار وياكَ بلطفٍ جسَّ بقراطَ نابضاتِ العليلِ

فطربوا وشربوا كلهم الا انا فلما آيستُ من الشراب بدأتُ اعمل في اكل النقل فقلت له ان انفع الانقال لي ما هو يا سيدي فقال ان المتوكل سأل جبريل عن انفع الانقال

فقال له تقل ابي نوّاس يا امير المؤمنين فقال وما هو قال

مالي في الناس كلهم مثلُ ما أيَ خمرٌ ونقليَ القبلُ

هذا قالهُ جبريل للمتوكل وهو صحيح ما به ما بك قلت صدقتَ الا ان هذا يصفهُ جبريل للمتوكل وفي مقاصيرهِ اثنتا عشرة الف جارية فانا يا سيدي على ما اعتمد في هذا النقل أعلى الشيخ ابي ايوب الكحال ام على ابي سالم الجراحي فغاظهُ هذا القول مني وقال أليس ذكرت انك طبيب قلت بلى ثم قال اي شيء تعاني من اجزاء الطب قلت الطبائع

القسم الرابع

في اختبار الطبائعي بمسائل توضح فضلهُ وتظهر جهلهُ

قال أسألك عن مسئلة قلت افعل فبدأ وانشد :

أعذني ربِّ من حصرٍ وعيٍّ ومن نفسٍ اعالجها علاجا

ومن زلاّت نفسي فاغفرها فاني لا اطيقُ لها لجاجا

ثم عاد وقال اسألك عن مسئلة قلتُ افعل فقال الشيخ لا

تظن اني اسألك لمَ صار الحبشة والصقالبة وبلادهم مختلفة وطبائعهم متضادة يغتذي كل منهم بالاغذية الحارة اليابسة ويشربون الخمور ويتغلفون بالمسك والعنبر ووجب ان يجرى الامر فيهم على خلاف ذلك التدبير فهذا مما لا اسألك عنه لانهُ معقول بالجواب ان الحبشة يستعملونهُ غذآءً والصقالبة يأخذونهُ دوآءً لئلا يلزم ان تستعمل انت مثل ذلك في الصيف والشتآء ولا اسألك ايضاً عن الخنزير وهو من اعدل الحيوان وغذآؤُه يجب ان يكون اعدل النبات وتراه يغتذي باخبث فضلات الانسان لان هذا من المسطور المذكور ولا اسألك ايضاً عن القدمآء لِمَ قسموا البلغم من طعومهِ ولمَ جعلوا الزجاجي والمسيخ احد اقسامهِ وليس لهُ طعم كاحد اصنافهِ ولمَ قالوا ايضاً انهُ بارد وهو أحرُّ من الدم في الهضم الثالث ولا اسألك عن الولادة هل هي طبيعية وقد جمعت اجناس الامراض الثلثة ام هي ليست بطبيعية وهي اصل الافعال الطبيعية والانسانية

لكني اسألك واقول لك ربما نام الانسان وهو حاقن فرأى كأنهُ يبول فلا يبول فانتبه وقد حفزهُ البول للخروج فنهض وبال قلت نعم قال فما الذي منع البول من الخروج مع حدته وامهلهُ الى الانتباه على كثرته قلت لا اعلم قال فمن لا يتأتى له الكلام في بوله يهجم على انقال الناس ويأكلها ثم التفت الى الحاضرين وقال صدق انهُ لا يعلم لان البطنة تذهب الفطنة. والله لو اكل ما اكله بقراط لاضحى يعتقد ان القوة العقلية في المعدة. ثم قال لي يا مبارك الناصية اذا لم يتشاغل الطبيب بمسائل الاطباء وتواريخ القدماء والبحث عن غوامض الكتب البقراطية وتفاسير الست عشرية وعلل البحارين الشمسية والقمرية وعن النماء وهل هو من خواص الاعضاء المتشابهة الاجزاء ام الآلية وعن النبض غير المنتظم في نبضة واحدة وفي نبضات كثيرة والا فبماذا يشغل نفسهُ أبأخبار المخنثين والمغنين وطيب لحن ابن شريح وترنم معبد ونوادر بدعة الكبيرة واهزاج سريرة

الراقصة وايقاع مزاحم الرقاص ؟ واذا لم يرض نفسهُ في كتب النسخ والدساتير وتحرير الادوية على موجب القوانين والا فبأي شيء يعتني؟ أبكتابة رقعة تتعلق بالعاشق والمعشوق ووصف القدود والخدود والعيون وكسر الجفون والجبين والانين وفرقة القرين ولوعة الحزين وطيب التلاق وشكوى الفراق وحلاوة الوصل ومرارة البين وما لحق قيساً مع لبنى والمجنون بليلى وجميل ببثينة قلت يا سيدي لست طبائعياً قال فانت ماذا قلت انا كحال فقال هذا شيء يتعلق بشيخنا ابي ايوب

القسم الخامس

في سؤال الكحال عما لا يسعه جهلهُ

فقال لابي ايوب اشرب هذا القدح واسأله ثم اخذ القدح وتأملهُ ورفعهُ وقال هذه والله كما قال الشاعر

وكأنَّ الزجاجَ قطرةُ ماءٍ ... جمدت والعقارَ شعلةُ نارِ

هات بالله يا سيدي غنِّ صوت استاذنا ابي اسرائيل الكحال

فاندفع وغنّى

قالوا اشتكت عينهُ فقلتُ لهم من شدّةِ القتلِ مسّها الوَصبُ
حمرتها من دمآءِ من قتلت والدمُ في النصلِ شاهدٌ عجبُ

ثم هزجه

مريضُ الجفونِ بلا علةٍ ومكتحلُ الطرفِ لم يكتحلْ
شكا حسنهُ قبحَ افعالهِ فأثّرَ في وجنتيهِ الخجلْ

فشربت الجماعة كلهم دوني ثم قال لي ابو ايوب لو ان رجلاً برخشياً «١» كحل عين حمارك على غير علم منك فاعماها وادعى ان بها سدّة ثم شارطك على برءها فكحلها بدوآء عاد بصرها به أتعرف الدوآء الذي يبقي طبقات العين ورطوباتها ويمنع النظر بها والدوآء الذي يزيل ذلك الداآء في الحال عنها فقلت لا فقال صاحب الدار يا أرمد البصيرة اعتقدت انه يسألك عن الظفرة متى تكون مرضاً ومتى تكون سبباً او عن جالينوس لمَ ذمّ العين الصغيرة ومدح

(١) اى من الغوغاء وهم اخلاط الناس

الحدقة الضيقة اللهم غفراً يا سيدي في اي شيء افنيت ايام الحداثة اظنك قضيت الزمان في محبة الصبوح والغبوق ومعاشرة الاخوان وتحديد القيان ومعرفة اسماء الخمر وتعديل نايات الطبل وتعبئة المجالس واصلاح المشام وتفريع الاترنج وحشو التفاح وترتيب الاوتار وشد ازيرة «١» الميدان على مقادير الالحان واصلاح الطبقات في ثقيل الاول وخفيفه والرمل وخفيفه والمزج بالوسطى والسبابة والبنصر . يا سيدي ما هذا والله مما ينفع الطبيب في طبه ولا المريض المسكين في ازالة مرضه قلت ما انا كمال قال اراك تدعي صناعة وتجحد اخرى كأنك تقدم غضارة «٢» وتبعد اخرى هات عرفني اي شيء انت قلت انا جرائحي قال هذا شيء يتعلق بالشيخ ابي سالم

(١) جمع زير وهو الدقيق من الاوتار

«٢» الغضارة القصعة الكبيرة

القسم السادس

﴿ في اعتبار الجرائحي بمعرفة التشريح والمنافع ﴾

ثم قال لابي سالم اشرب هذا الدور واسأله ثم التفت الى الساقي وقال له ناوله فاعطى لابي سالم فشرب وانشدوا

جدّ بناء المزن والغيب ... كاشفات الهمّ والكُرَب
قهوةٌ لو انها انتسبت ... ساجلت قحطان في النسب
فهي تكسو كفّ شاربها ... دستاناتٍ من الذهب

فملأ الساقي القدح واعطاه فقال لابي جابر غنّ لي صوت استاذنا ابي الحسين بن نفاح فاندفع يغني :

كلّ جريحٍ ترجى سلامتهُ ... الا فؤاداً دهتهُ عيناها
تبلُ خدّي كلّما ابتسمت ... من مطرٍ برقهُ ثنايا ها

فشربوا ثم ملاءوا الاقداح فهزجهُ

تأوّهي من حرّ نار الهوى ... قُتلتُ حتى لم يجد مقتلا
تأوّهي من جسدي كلهِ ... فسل مني منفصلاً منفصلا
ارى المعافى يعذلُ المبتلى ... يا ربنا العادلُ ما يبتلى

فشربت الجماعة ثم اومأ اليّ وقال يحتاج الجراحي ان يكون عالماً بالتشريح ومنافع الاعضاء ومواضعها ليجتنب في فتح المواد قطع الاعصاب واطراف العضل والاوتار والالياف ثم قال كيف معرفتك بالتشريح قلت على غاية الكمال قال كم هي الياف المعدة قلت ثلثة قال وما هي قلت واحد موضوع طولاً به تجذب الغذاء وآخر يمضي عرضاً به تمسك الغذاء وآخر ورباً به تدفع الغذاء . قال فان قال قائل لا بل الدفع بالموضوع عرضاً والمسك بالموضوع طولاً والجذب بالماضي ورباً بماذا تجيبه أترى هذا مما يقوم لك عليه برهان او تظهر لك صحته من العقل والتأثير قلت لا فقال صاحب الدار انا والله نظلمه . من أكل ذلك الاكل لا يجيب عن هذه المسائل . ثمّ قال ابو سالم أحسبك انك اعتقدت انني اسألك عن الجراحات المدورة في المفاصل المتحركة لمَ لا تلتحم بسرعة وعن علة الضرس النابت في سن الشيخوخة وعن الفرق في البنية بين الاناث والذكور ماهذه

مسائل تضيق افاضل العلماء عن جوابها ثم التفت الى الحاضرين وقال قد حصلنا من هذه الصناعة على تدوير العمامة وتحرير الشابورة «١» وسعة الدراعة وعظم الخاتم والفشر عند العامة اذا غاب الفضلاء وقول السوقة يا فلان أما ترى ذا ؟ من اين مثل هذا ؟ ومن يسمع من غيره هكذا ؟ لاسيما اذا اخذ الكتاب بيده وفتل شاربه واماط رأسه واوما بيده عند قراءته فمن الحواريون في اقامة الموتى وابراء الزمنى ؟ ومن بقراط في طبه ؟ وارشميدس في حيله ؟ واقليدس في هندسته ؟ واذا فاتحته بالعلم وجدته عارياً مما انحلته عاطلاً مما تحلى به وانتمى اليه وتمول في المعيشة عليه : فهو كما قال الشاعر

فاذا ساجلته في علمه ... قال علمي يا خليلي في سفط
في كراريس سجادٍ حكمت ... وبخطٍ اي خطٍ اي خط

«١» لعلها السابورة بالسين من شابور وهي كورة في بلاد فارس ينسب اليها السابري وهو ثوب رقيق جداً . وتحرير بمعنى ضبط

فاذا قلت له هات اذاً حك لحيته جميعاً وامتخط

واذا أخبر عن شيء ترى فاتحاً فكّاً ومنه قد خلط

لاسيما الواحد منهم اذا شدّ العضد وفصد ومسح الميل وكحل ونظر الى القارورة وحرك رأسه فقد وفّى الصناعة حقها وعرف علمها وعملها وقال لقد احكمتها والصواب التشاغل بعلم غيرها وينسى وقول بقراط العمر قصير والصناعة طويلة، هذا والساعات طائرة والحركات دائمة والفرص بروق تأتلق والاوطار في الايام تجتمع وتفترق، والنفوس على قرائنها تذوب وتحترق، فان اتفق لهذا الجاهل ان يحضر مع طبيب قد امهر ليلة وكدّ نفسه فيما يحتاج اليه في مناظرته لم يحصل منه على اكثر من المباهرة والمكابرة والاعتضاد (١) عليه بالنساء والعامة والشناعة الى المريض برقاع الاصدقاء الى ان يصرف ذلك الطبيب

(١) الاستعانة، ما ابدع ما وصف به المخرقين بصناعة الطب المسرفين عندنا بالدجالين، وسيأتي الكلام عليهم في التكملة

ثم لا يزال معه في طبه ماضياً على سنته الى ان ينبت المرعى على تربته فاذا سئل عنه بعد موته قال ما كان يمكن ان يعيش لان المرض كان مهلكاً والقوة ساقطة وما على الطبيب الا الاجتهاد وليس في قوة الصناعة شفاء كل مريض ولو كان كل مريض اذا استطب برأ لما مات احد ولكن الآجال مقسومة فلا الحيلة ولا حيلة في الموت ولا قدرة لنا ان نزيد في الاجل ولعمري انه كان حرّاً ويعز عليّ والله فقده ولكن الانبياء ماتوا وما يبقى احد ويخرج لهم في فتاوي احمد بن حنبل ويستطرد بمخالفة المريض وغلط الطبيب الاول فان سئل عما تجدد له تمثل وانشد

أخفي عليه الذي أخفى على لبد (١)

وان قدر ان يتأتّى له بروء قال لقد خلصته من فك الاسد ورددته من شفير القبر ويرى انه حلّ العصابة

(١) لبد آخر نسور لقمان والشعر للنابغة وصدر البيت

اضحت خلاء وامسى اهلها احتملوا

من لحيته ونزع يد الغاسل من يده وجذب ناصيته من منكر ونكير وقد بدأ بمسائلته ثم قال مالي اراك مطرقاً ملياً قلت لاني لست جرائحياً فاغتاظ من تنقلي في الصنائع وقال .

اظنك من بقية قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

قلت ياسيدي عادتي اغتذي ثلث دفعات في اليوم قال دع هذا عنك فما هذا اردت هات عرفني اي شيء انت قلت فاصد

القسم السابع

﴿ في امتحان الفاصد في ما يحتاج الى معرفته من المنافع ﴾

قال هذا شيء يتعلق بفتانا ابي جابر فالنوبة معه فقال ابو جابر لصاحب الدار ياأستاذ اسألك ان تنوب عني في مسائلته وانا اعوضك عن ذلك بان اغني لك شهر شاجي لما اهدت جاريتها للمتوكل يوم فصاده قال افعل فاندفع الغلام وغنى .

فصدتَ عرقًا تبتغي صحةً البسكَ اللهُ به العافيهْ
فاشرب بهذا الكأس ياسيدي متنعمًا من هذهِ الجاريه
واجعل لمن اهداكها زورةً تحظى بها في الليلة التاليه

فصاح وطرب وشرب ثم ملأوا الاقداح فهزجهُ

ويحَ الطبيبِ الذي جسَّت يداهُ يدَكْ ما كانَ اخبرهُ فيما بهِ اعتمدكْ
لوأنَّ الحاظهُ كانت مباضعهُ وقد نحاكَ بها من رقَّةٍ فصدكْ

فصاح وطرب وشرب وملأوا الاقداح فلما شربوا سكتت الجماعة فقال الشيخ كان للملوك اليونان عادة وذلك انهم لا يعلمون صناعةً لانسان الا بعد تأمل مولدهِ لان المطبوع في كل امرءٍ هو الذي يكون دليل ذلك الشيء قويًا في مولدهِ والذين لا مولد لهم يدخلونهم الى بيت فيه صور الصنائع فما تحركت اليهِ طباعهم ومالت نحوهُ نفوسهم واشرأبت اليهِ قلوبهم اخذوهم بتعلمهِ لقولهِ « وكل امرٍ يصبو الى ما يجانس » وجالينوس يستدل على همة الصبي من لعبهِ مع اقرانهِ في الملعب وهل يؤثر ان

يكون ملكاً عليهم او خادماً لهم فان الشخص تسمو نفسه في ذلك الوقت بحسب الغالب عليه في طباعهِ اذا كانت الرويةّ (١) مغمورة بالطباع الحيواني ولما فسد هذا النظام صار كل عطار يتصدّى لنظر القوارير (٢) والكلام على الطبائع وتنفيق ما كسد عندهُ من الحوائج ولاسيما اذا اضاف الى طبهِ قرطاساً فيه نشادر وخضاب وغسول وكليكان (٣) وحب المروس (٤) وان شمشآء تحلف لسكينة بالمصحف ان ليس في العالم احسن من طبهِ وهو مع هذا ربما طبخ ماءَ الشعير وانكبَّ على نفخ الدخان ولا يعلم المسكين ان الفاصد يحتاج ان يعنى بعينيهِ بمداومة الاكحال الجالية وشرب الجبوب المنقية .

---

(١) الروية النظر في الامور بعد الرؤية وقبل العزيمه

(٢) جمع قارورة ويراد بها الوعاء المستعمل لفحص البول قال بعضهم يمدح ابن قرة الطبيب

مثلت له قارورتي فرأى بها ماكنت بين جوانحي وشغافي

(٣) من انواع الكراث (٤) هو الكبابة نبات عطري

تالله انني ما اعلم من المرحومُ الفاصد المدفوع الى ما ليس من عمله ام المقصود المغرور الذي يوقع يدهُ بيده فيتحكم في عرقهِ وعضدهِ ، ثم قال لي اسألك قلتُ سل عما بدالك قال . لا تظن انني اسألك عن العلة التي من اجلها صار بعض العروق يفصد طولاً وبعضها عرضاً وبعضها ورباً فذلك معروف ولا اسألك ايضاً لِمَ صار منفعة فصد الاسيلم (١) في بعض الامراض اكثر من الباسليق (٢) وهو طرفهُ وشعبةٌ منهُ ولا عن الشروط التي تلزم الفاصد وقت فصادهِ وقبلهُ وبعدهُ ولا عن العروق التي حصلت معرفتها بالقياس والعروق التي عُرفت بالتجربة والتي أدركت على جهة الوحي في المنام فذلك مما يعرفه فأر البيمارستان ولا اسألك عن عرق الجبهة اين يطلب في الصبيان وعرق اليافوخ اين

(١) وريد بين الخنصر والبنصر

(٢) وريد في ثنية المرفق يستعمل الفصد فيه عادة

يوجد في الرجال ولا اسألك عن الدم الاحمر الذي اذا طرح عليه الماء اسودّ والاسود احمرّ بل اسألك عن العلة التي من اجلها يكره الاستفراغ بالفصد في امتلاء القمن والدم من استهلاله الى ابداره في ابدان الحيوان اغزرُ منهُ في زمان محاقه أتعلم ذلك قلت لا . قال أفتعرف الفوائد الثلث في شدّ العضد قبل الفصاد قلت لا قال . ألا تعرف اول من نبهَ على الفصاد واختياره لمداواة الامراض قلت لا . قال فانت من عمرك تنتهك اعراض الموائد وتحبب الناس بالاكل وتأكل وتنام وتتلوى في المسائل كانك عرق زوّال (١) تحت مبضعٍ مصدٍّ وقد خصلنا من هذا الفصد معكم على شق العروق واخذ الفضة وشهادة العامة ان فلاناً يفصد جيداً ويدهُ خفيفة والواحد منكم لا يعلم انه إن ضرب شريانا نزف الدم الذي يتبعهُ الموت وان ضرب عصباً

(١) الذى يتحول

ابطل الحركة والحس وشنج اليد وان ضرب عضلة جذب المواد الخبيثة الى العضو * بطلت والله هذه الصناعة وصار الحذق في الفصد مسك العضد وغوص الشد وعصر العروق حتى يهراق الدم وعصّ (١) العصابة وتربيع الرفادة وترك المبضع تحت العمامة فما يعرفون غير اهراق الدماء واخذ الكرآء فلو ان انساناً ضاعت حمارته او وقعت دراعته (٢) لما اشرتم عليه الا بفصده واهراق دمه ثم قال لي ارني مباضعك فاخرجت اليه دست المباضع فتأمله وقال اين المدورات والشفرات والمزويات (٣) والحربات واين فأس الجبهة وصنارة الصدغ والدوآء القاطع للدم قلت ما معي من هذا كله شيء قال فأرني لطف انامك فلما اخرجت يدي قال ما هذه انامل تصلح

(١) اى شدها

(٢) الدراعة جبه من صوف

(٣) المزويات اى ذوات الزاويه

لجس المروق ولا هذا زندٌ يقدح جواب هذه المسائل قلت لست فاصداً قال فانت ماذا قلت صيدلاني

القسم الثامن

في اعتبار الصيادلة بمعرفة العقاقير والادوية

قال هذا يلزم شيخنا ابا موسى فقال لابي موسى اشرب هذا القدح واسأله فملأوا الاقداح ورفع ابوموسى قدحهُ وقال ما احسن ما قال فيها ابن المعتز

وراحٍ من الشمس مخلوقة بدتْ لك في قَدَحٍ من نهارِ
هوائية ولكنهُ راكدٌ وماءٌ ولكنهُ غيرُ جارِ

ثم التفت الى الغلام وقال بالله غنِّ صوت استاذنا احمد بن قرابة فاندفع يغني

لما لممتُ باصحابي وقد هجعوا حسبت حتى رحال القوم عطّارا
فقلتُ من ذا المحيا وانتبهتُ لهُ قالوا الحبيب الذي تهواهُ قدزارا
قلت ادخلوا نعمتْ دارٌ بقربكمُ اهلاً وسهلاً بكم من زائرٍ زارا

فلما شربوا قال ابو موسى لستُ اسألك عن

الادوية التي تستعمل لوقتها والتي تستعمل لشهرها والتي يؤمن استبقاؤها وان تقادم عهدها لأن هذا معروف ولا اسألك عن الدواء التفه الذي اذا طرح على الخل حلا . ولا عن الدوآ الذي اذا طرح على الحلو حمض ولا عن الشيء اليابس الذي اذا القي عليه الربوب اماعها ولا عن المائع الذي اذا طرح عليه الماء جمد فذلك معروف بل اسألك عن الحجر الذي اذا أدني الى ضوء السراج يضمحل . وعن البدور القمرية . وعن السنباذج (١) الصيني . والسانج (٢) الهندي والتوتيا الحشري (٣) وعن منابت العقار بحسب فصول الزمان أفتعرف ذلك قلت لا قال أفتعرف الحنظل قلت نعم قال

---

(١) حجر كانه مجتمع من رمل خشن معدنه فى جزائر بحر الصين

(٢) نبات شبيه بالناردين

«٣» لعله بالنسبه الى الحشر وهو النخالة او تحريف الحجرى

أفتعرف الانثى من الذكر قلت لا . قال أفتعرف ما منهُ دوآء نافع فتأخذهُ وما منهُ سم قاتل فتطرحهُ . قلت لا قال أفتعرف الاسفنج ليس البحري ولكن النباتي قلت لا قال أفتعلم متى يؤخذ زبل الذئب وبعر الضب قلت لا . قال أفتعرف الشيء الذي تغير الطبيعة طعمهُ وتبقى عليهِ لونهُ والشيء الذي تغير لونهُ وتبقى طعمهُ والشيء الذي تغير طعمهُ ولونهُ وبالضد . قلت لا قال أفتعرف الحجر الذي يراه الناظر ابيض فاذا ادام النظر رآهُ احمر فاذا ادامهُ جداً رآهُ بنفسجياً فان زاد النظر رآهُ اسود مظلماً قلت لا قال أفتعرف الدوآء البسيط الذي يجد اللسان منهُ حلاوة ومرارة وحموضة وملوحة معاً قلت لا . قال الشيخ يابيروح صنمي (١) ما هذه من مقاماتك هذه من مقامات ديسقوريدس الذي قد بدلنا منهُ بقطاعي الشوك وباعة

«١» اليبروح اصل اللفاح البرى ويسرف عندهم باليبروح الصنمى لانه يشبه صورة الانسان

الفودنج(١) ها انتم تلعبون بمهج الناس . تعزّ عليّ هذه الصناعة قلّ الواصف لها وعدم العارف بها فتحامى التجار جلب العقار وبقينا من صناعة الصيدلة على البراني المصفقة والصواني المزوقة والدكاكين المزخرفة والالواح المرندجة (٢) والموازين والمكاييل والمصافي والطباشير وصارت العناية كلها بالحنآء الجيد وماء الورد الطيب والخضاب الحلك والغسول الاحمر والقلي والنوشادر والحارود(٣)ودخنة مريم وان تقول شمتآء العاتكة ما في الدنيا مثل دخنة ابي الحسين العطار وتقول علينا القابلة ومن اين مثل قشوته(٤) وتقول سكينة الماشطة ان

«١» نبات هو اللبلاب بمجمه الاندلس وعامه مصر تسميه فليه واهل الشام يسمونه الصفر .عن ابن البيطار

«٢» المدهونه بالاسود من البرندج والارندج وهو السواد والزاج

«٣» هو اسم الحيوان الذى خصاه الجندبادستر

«٤» قفه خوص لعطر المراة

عنده دهن العافية شيءٌ ما في الدنيا مثلهُ وتحلف ان ما في العالم مثل حوائجهِ لا سيما اذا قالت لهُ كم ثمن خمس دراهم فشار فيعطيها ويزيدها ويحلف انهُ لا يأخذ ثمنه منها ويرسلها وقد جعلها شبكةً من شباك المعيشة فلا يبقى حمام ولا مجلس قاضٍ ولا سوق غزلٍ ولا دكان قطان الا والحديث كلهُ صفة ابي الحسين العطار . فلما استوفى كلامهُ عجزت عن الجواب ورأيت ان مسألتهُ من الصواب فقلت ياسيدي الحكماء يقولون ان لكل فضلٍ زكاةً فزكاة المال الصدقة على الفقير المحتاج وزكاة القوة المدافعة عن الضعيف المظلوم وزكاة البلاغة القيام بحجة من عجز عن حجتهِ وزكاة الجاه ان يعين بهِ من لا جاهَ لهُ وزكاة العلم التعليم لمن قصر علمهُ واذا وجب على المال زكاةٌ وهو ينقصهُ الانفاق فهي اوجب على العلم الذي يزيدهُ الانفاق وقد قيل العلم كالشعر كلما حلقتهُ كان اقوى لنمآئهِ فان لم تحلقهُ فان لهُ مقداراً محدوداً ان قُصَّ عادَ اليه

وان ترك لم يزد عليهِ فهل لك ان تعرفني جواب هذه المسائل قال الشيخ من يمنع الحكمة طلابها كالذي يمنع الظمآن الماءَ البارد المذب ومن يعرض الحكمة على غير طلابها كالذي يعرض على الريان الماء الحار المالح وانا اعرفك جواب هذه المسائل بعد ان تعرفني اي شيء تنتحل من الصنائع فبالله انني اورد عليك كلاماً كالوشي المحبوك والذهب المسبوك قلت انا رجلٌ جئتُ بكتب الى اهل هذه البلدة قال انت من طب الرقاع والرسائل والتفتَ الى القوم وقال هذا مثل فتانا قلت ومن هو

القسم التاسع

في غيرة الاطباء وتغايرهم على المرضى

قال فتى حدث نشأَ عندنا يعرف بخاروف ابي الوفا امسى في بعض الليالي معافى واصبح يدعى انهُ حكيم ،
قالت لهُ النفسُ كنْ طبيباً تقضي على الناس بالذهاب

تأخذُ مالَ العليل قهراً ثم توآتيهِ (١) الى التراب

اعاذنا الله واياكم من سوء ما تجري بهِ المقادير على يديهِ فهو الآن يلبس الدبيقي(٢) المقلم والمقصب المذهب والخواتيم اليشب والفيروزج ومع هذا فوالله انني ارحمهُ

وحسبكَ من حادثٍ بامرءٍ ترى حاسديهِ لهُ راحمينا

لان هذا اللباس يبغضهُ الى الناس ويحملهم على غيبتهِ حتى يتكلموا فيه بما انا احلف انهُ لا يتجاسر عليهِ ولا يمد يدهُ اليهِ ولكنهُ لا يرضى لنفسه ان يكون مثلنا نحن الاطباء الذين رضينا من الثياب ما ناب مناب الريش للطائر ومن الشماشك (٣) ما ناب للحيوان مناب الحافر هذا انفع وذاك اطيب ولكن اللعب الى آخرهِ ياسيدي هذه عادة القدماء وزهاد الاطباء وكل ما لا يشبه اربابهُ

«١» تسوقه

«٢» بالنسبة الى دبيق بلد بمصر

«٣» جمع شمشك وهو من ملابس الرعاة

مسروق ونحن اعزك الله اصحاب ثروة وعافية ما علينا من غيرنا ولكن اذا رأى البائس الفقير طبيباً كأنه وزير فكيف يتجاسر عليه او يمد يده اليه او يجسر يريه نفثه وبوله وبرازه ولكن هو بعد حدث ما يحسن يداري عيشه ومن المعلوم ان ذا العقل لا تبطره منزلة اصابها وان عظم امره كالجبل الذي لا يتزلزل وان اشتدت به الريح والسخيف تبطره ادنى منزلة كالحشيش الذي يحركه ادنى ريح فان الادب يذهب عن العاقل السكر ويزيد الاحمق سكراً كالنهار يزيد كل ذي بصر بصراً ويزيد الخفاش عمىً . بالله انني اعجب اذا قالوا ان فلاناً قد صار طبيباً وكنت اعهده يتيماً فلما ترعرع ماشى كسير وعوير (١) فشهدا له بالجندية والركوب والفروسية الى ان مضى على ذلك برهة فما احسست بشيء حتى تصدر بعمامة وصقل

«١» بصيغة التصغير كنايه عن قرين السوء يقال له كسير وعوير وكل غير خير

اطرافهُ وقص اظفارهُ ووسع اردانهُ والتحق بالرؤساء وانتمى الى خدمة الاولياء وبدأ يتعلم يكتب ويقرأ ويتسور باخبار الاطباء ولمهدي به يوماً وقد حكى لبعض الرؤساء حكاية اساءة فيها الرواية فقال ان بعض سراري الملوك شكت الى جبريل بخراً كان بمولاها وان جبريل اشار عليها ان تأمر الخياطين ان يفتقوا دروزها ويملئوها مسكاً حتى اذا قرب مولاها منها تعتمد ان تشم الدروز واذا قويت عليها الرائحة تواصل شم الدروز فكانت تجمع الدرز والدرزين وتشمهما فاندفع الناس يضحكون من مخاطبته لصاحب المجلس بهذا ومن انهُ المسكين لا يعلم ان التاء في الفعل المضارع تصلح للمؤنثة الغائبة والمذكر الحاضر وشتان بين هذه الحكاية وبين ما جرى بين اسحق بن حنين وبين القاسم بن سلام وزير المعتضد وذلك ان القاسم بلغهُ ان ابا يعقوب اسحق شرب دواءً مسهلاً فاحب مداعبتهُ وكان صديقاً لهُ فكتب اليه

أبنْ لي كيف امسيت وكم كان من الحالِ
وكم سارت بك الناقة م نحو المنزل الخالي

فكتب اليه اسحق

بخيرٍ كنتُ مسروراً رخياً ناعمَ البالِ
واما السيرُ والناقة م ثم المربع الخالي
فإجلالك انسانيه م ياغايةَ آمالي

وما ابعد شبه المسكين ايضاً ببعض ظراف الاطباء وقد انفذهُ صاحبهُ في جيش فلما عاد سألهُ عن الوقعة على جهة المداعبة فقال التقت الفئتان في موضع كرجبة البيمارستان فلو القي مبضع لما وقع الا على قيفال فما كانت الا هنيهة بمقياس عشر نبضات حتى بحرنا اعداءنا بحراناً مهلكاً وعدنا في صحة مطلقة باقبالك يامعتدل المزاج . ثم قال الشيخ يعزُّ عليَّ والله بهؤلاء الاطباء مات الناس وباد جهابذة الصنائع ونقاد العلوم فانقلمت عين الفضل ووهى عمودها وانكسر فقارها فلا حريم للحكمة الا مستباح

ولا جانب للفضل الا وهو متثلم فالمصيبة عامة والعزاء خاص لان المريض مستغيث والطبيب عاجز وبينهُ وبين مداواته سجافٌ قاطع مانع وهذا عيان يغني عن البرهان. ثم ملأوا الاقداح واستدعى ابو سالم كاساً كبيرةً فلما ملأها رفعها بيدهِ وقال ما احسن ما قال فيها ابو نواس

في كؤوسٍ كانهنّ نجومٌ باديات بروجها أيدينا
طالعاتٌ مع السقاةِ علينا فاذا ما غربن يغربن فينا

ثم قال لابي جابر يا ولدي غنّ احد اصواتي فاندفع وغنى

عينُ الزمان اصابتنا فلا نظرَت وعذبت بعذاب الهجر ألوانا
قد كنتُ أشفق من دمعي على بصري فاليومَ كلُّ عزيزٍ بعدكم هانا

فطربوا وصاحوا وشربوا وملأوا الاقداح واقترح صاحب الدار على الصبي فغناهُ .

مرضتْ فجئتُ اعودُها فتزينت فهيَ الصحيحةُ والمريضُ العائدُ
واللهِ لو قسمتِ القلوبُ كقلبها ما رَقَّ للولدِ الضعيفِ الوالدُ

فشربوا وحيّ بعضهم بعضاً واكثروا من الثناء على صاحب الدعوة فلما سكتوا قلت ياسيدي من هذا الطبيب الذي هذه صفاته فضحك وقال صبيٌّ كنت اعرفهُ ببغداد وهو اذا مصّ الثماد (١) ناب عندهُ مناب الماء الغزير اليوم قد تعلم يأكل الباقلى المقشر والباذنجان المقمع فهو كما قال الاول

كانّ الفتى لم يعرَ يوماً اذا اكتسى ولم يكُ صعلوكاً اذا ما تموّلا
ولم يكُ في بؤسٍ اذا باتَ ليلهُ يناجي غزالاً ساجيَ الطرف اكحلا

غير انهُ قد دخل فيما ليس من عملهِ وتصدى لمقعد ليس من اهله فالنعمة نافرة عنهُ والرئاسة غريبة منهُ وانشد

نعمةُ اللهِ لا تعابُ ولكن ربما استقبحت على أقوامِ

فواصلتهُ ظناً بان الزمان يصلحه فوجدتهُ يتوصل الى الكسب بكل وجهٍ ويتحيل في جذب الدرهم بكل ضرب فهو مع الجند في فن ومع التجار في فن يصف للشباب

(١) الماء القليل

سنوناً للفم وللنساء دواءً للسمن والمشائخ جلاءً للعين وللمجانز خضاباً للشعر وهو تارة يتطيب وتارة يتنجم وتارة يدلل ويسمسر واذا دخل في شيء يحلّ ويربط ويحسن البحث ادعى انه عبدالله بن هلال ومع هذا يتجر في الاكفان ويستعمل التوابيت ويكري ثياب الجنائز ويرابي النوائح ويغمز الى اصحاب الموراث واذا دخل لقوم داراً فارقها بخزي وابقى بعدها عاراً سعادته بمناحس المرضى ومناحسة بسلامتهم من يده الشلاء واعداؤه جميع الامم واصدقاؤه الحفارون والرخم .

قد عوَّد الطير عاداتٍ وثقنَ بها فهنَّ يتبعنهُ في كلّ مرتحلِ

واذا حضر ايام الربيع اجتمع مع عطار لهُ وشارطه على نصف اثمان الادوية ويمضي هو فيقصد الرؤساء في دورهم ويلقى التجار في دكاكينهم ويهدد الناس في الربيع بهجوم الحر وفي الخريف بورود الشتاء ويلقى هنداً فيقول لها ياستي ادركي قد تغيرتِ والله ان عيناً اصابتك ثم يقول لها ياستي

لعن الله الدنيا ما تساوي العين لحظة عين وينشد

انما دنيايَ نفسي فاذا ذهبتْ نفسي فلاعاشَ احد

ليتَ ان الشمس بعدي غربت ثمَّ لم تطلعْ على اهل بلد

ياستي تقبلين مني فتقول له نعم يابي ولا اخالفك فيقول الصواب ان تشربي ماء الجبن فانه يخصب الجسم ويسمن الهزال ويبيض اللون ويحمر الوجه ويرق البشرة ويشهي الاكل ويجيد الاستمراء ويطيب النهكة ويزيل الكلف ولا يبرح حتى يكتب لها ادويةً غريبة . ويقول امضوا الى فلان العطار وهو والله غشٌّ صعب السكة ولكن حوائجهُ جيدة فلا تفكري في الثمن . ويقول للغلام سيستأمر عليك عشرين درهماً وينقصك خمسة اجتهد في عشرة ان باعك وما اظن فليست بغالية والا فاعمل برأيك ولا ترجع الا بقضاء حاجة لان القمر غداً في العقرب . وصبحهُ عني وقل انا اعوضك في شربة أخرى ويجوز ان لا تربح علينا في هذه فانها لصديق . فان مضى

الغلام واخذها من غيرهِ فانك تراهُ كالاسد الذي قد فاتتهُ الفريسة وهو جائع لانهُ يتأملها ويقول اين الاهليلج الاسود والترنجبين الابيض والامير باريس (١) الحديث الاحمر. ملتم والله الى الرخص اما تعلمون ان الحكماء يقولون اذا كان الطبيب حاذقاً والمريض موافقاً والصيدلانيُّ صادقاً فما اقلَّ لبث العلة . لا والله لا غطيتُ الحق بغشوة ولا قبلت على الطب رشوة ولا استعملت الا حوائج جيدة ان اردتم من ينصحكم والا فما تتقون ممن يغشكم . كل هذا يفعلهُ وهو يشكو البطالة وضيق المعيشة فقلت قد شغلت قلبي بهذا الرجل فقال والله ما ذكرت من اموره الا احسنها وانشد

وأعرضُ عن اشياءَ لو شئتُ قلتها ولو قلتها لم ابق للصلح موضعا

ولولا انني لا اوثر الشر لجازيتهُ على قبيح ما فعلهُ معي في هذه الايام . قلت وما الذي فعل بك قال

(١) هو البرباريس

نشرب هذا الدور واعرفك فملأوا الاقداح واندفع الغلام وغنى

جسَّ الطبيبُ يدي جهلاً فقلتُ لهُ اليكَ عني فهذا يومُ بحراني
فقال لي ما الذي تشكو فقلتُ لهُ اشكو اليكَ هوىً من بعض جيراني
فقام يعجب من قولي وقالَ لهم انسانُ سوءٍ فداووهُ بانسانِ

ثم هـزجهُ

وما بكَ علةٌ تشكى لطبٍّ ولكن المليحَ لهُ دلالُ

القسم العاشر

﴿ في اعتذار الطبيب المصروف وذم الصارف لهُ ﴾

فلما شربوا قال الشيخ اسمع ياسيدي حديثهُ . كان لي مريض يهمني امرهُ فكنتُ ألازمهُ واساهرهُ وارصد الطبيعة في افعالها واراعي انذاراتها وبحاريها واقايس بين قويها وضعيفها وبين العلامات الرديئة عليها والجيدة لها واقابل بين القوارير وانظر بين رسوب هذه مع رسوب هذه وقوام هذه مع قوام هذه ولون هذه مع لون

هذه لأَعلم آخر الابتداء والتزيد واول الانتهاء والانحطاط في المرض خوفاً من استعمال دواء في غير وقته فاكون في طريقة والطبيعة في اخرى فيتطرق عليَّ ما تطرق على قلاع الاضراس من قلع الضرس الصحيح وترك السقيم وكنت اراعي الادوية والاشربة والاضمدة وصلاح الاهوية لان الطبيب اذا دخل على المريض يحتاج ان يكون كالشجاع الذي يدخل الحرب وقد اعد جميع ما يقيه ويقاتل به فانه لا يعلم اي خصم يثور اليه وباي سلاح يأتيه وباي حيلة يأخذهُ . وكذلك الطبيب يحتاج اذا دخل على المريض ان يكون عارفاً بتركيب البدن ومزاج اعضائهِ والامراض الحادثة فيها واسبابها واعراضها وعلاجاتها والادوية النافعة فيها والاعتياض عما لا يوجد منها والوجه في استخراجها وطرق مداواتها ليساوي بين الامراض والادوية في كيفياتها ويخالف بينها وبين كيفياتها فما زال يثقل على المريض بسؤال العوادورقاع الاصدقاء

حتى صرفني واستطبهُ فوالله لقد وجدت بذلك راحة واستراح مني خدامهُ والصيادلة وبالله انني ما احسدهُ لكن ان قلت لك انني لست مغتاظاً منهُ فلا تصدقني لان المثل يقول اشد الناس غماً الذي نزل غيرهُ في المكان الذي هو احقُّ بهِ منهُ ولكن اعلم ان هذا داء قد بلى بهِ الاخوان من قديم الزمان فان السبب الذي بهِ يدرك الماجز بغيتهُ هو السبب الذي يحول بين الحازم وطلبتهِ على انهُ قد قيل ان طيب النفس حسن الانصراف عما لا سبيل اليهِ فاحق ما صبر عليهِ ما لا يوجد الى تغيره سبيل وقد فقد الصبر

ومن اين لي صبرٌ وفي كل ساعةٍ ارى حسناتي في موازين اعدائي

الساعة انا اصدق ان هذا الطبيب الجديد مثل طبيب سنهُ خمس وتسعون سنة وهو ما دبر قط مريضاً بهذا التدبير او عرف هذه القوانين او جرب هذه الامراض او رقم هذا البرد او جهز هذا الملاج للمرضى او ظن به انهُ مما يتعامل

بهِ الاطباء او سمع بهِ او عملهُ او خطر ببالهِ حتى انهُ يستعملهُ فان انا اعتقدت هذا فاني اظلمهُ وقد بلغني ان هذا الدجال غير هذا التدبير بعدي ولم يمضِ على قانوني واراد ان يظهر صنعة أخرى تودي بحياة المريض ولكن لا يصلح لاصحاب هذا الزمان الامثلهُ لانهُ متمحل وبلغني انهُ لا يكلم احداً الا بالميزان. اين هو منا نحن الذين نعتقد في المرضى انهم اولادنا واخواننا بالله لو انك شاهدتني في صلاتي لرأيت منظراً عجيباً فان الناس كما قد علمت واحدٌ يسأل في صلاتهِ سعة الرزق وآخر خاتمة خير وانا امدُّ يدي واسأل في رسوب ابيض ونفث املس وعرقٍ كثير وبول غزير ومجلس كبير واقول في تهجدي يارب عبدك فلان هي ليلة بحرانهِ جد عليه بمرقةٍ وفلان بهِ نقرس جد عليهِ بنومة. قلت ياسيدي سل الله ان يرزقك ما يغنيك عن هذا فضحك الشيخ وقال ماكان مثلك الامثل من ضربهُ القولنج فبقي طول ليلتهِ يسأل الله سبحانهُ ان يفرج عنهُ بريح

فلم يكن فلما آيس من الحياة قال يارب ارزقني الجنة فقيـ
لهُ انت طول الليلة تسألهُ في ريح ما أجابك أتسألهُ في جـ
عرضها السموات والارض ولكن كان يجب ان تشير عـ
بهذا لو كان دعآءي مستجاباً والله ما دعوت لاحد قط فافا
وان الذي دعوت لهُ بالاسهال قد ضر بهُ القولنج والذ
سألت لهُ في عرقة الحمى عليه مطبقةٌ وسبب ذلك ان
القوم لا يعطوننا شيئاً بنصيحة ونحن لا ندعو لهم بـ
خالصة نعوذ بالله من كساد الاطبآء ونفاق المرضى ع
ان لي مع هذا الوغد مقامات يعرفها واموراً لا ينكره
من ذلك اني سألتهُ يوماً على جهة المداعبة لِمَ صار سـ
الكلب ينفع في الدباغة وخثيُ البقر في القصارة وزبل الذئـ
يحل الذبحة وبعر الضب يجلو اثر القرحة؟ فكاني القمـ
بهذه المسائل نجواً ثم رأيت ان اغيظهُ بمسئلة أخرى فقلـ
لهُ لِمَ النجو عند الاستنجآء على ما به من الكراهة تتنظفـ
منهُ اليد بالماء ولما كان غذآءً طيباً لا تزول عنها رائحتهُ

لا فيه عطرية وجلاء كالسعد والاشنان ؟ قال لا اعلم قلت
ثم صار البول على الاكثر اذا برد ثخن وتكدر وكل
العصارات اذا بردت رقت وصفت ؟ فقاطعني ومضى يقرع
لسنهُ على ما فات من زمانهِ ايام الحداثة حيث كان العود
رطباً والطين ليناً ويتأسف باسف الغلام الذي ذكرهُ جالينوس
قلت وما قصة هذا الغلام ؟ فقال قال جالينوس ان الصبي
الذي يشغلهُ حسنهُ عن العلم في ايام الحداثة اذا هجرهُ
لإحباؤهُ وهو خالٍ من فضيلة قال ياليت حسني لم يكن
لي قلت ياسيدي هذا الذي بينكما لا ينصلح قال ليس كل
الامراض تستطاب كم من مرة رام الرؤساء اتفاقنا وخلع
طورك مع ثلم الافريز (١) هيهات ان يعود الى ما كان عليه
تلوكم تجتهد المرضى في اصلاح ذات بيننا من غير علمٍ منهم
تخاطن امرنا فيخيطون ناحية من الدمل فلا ينفع ذلك
الاجتهاد لان الذي بيننا جرحٌ لهُ غوران لم يكشف لم يصل

(١) الافريز من الحائط طنفه وافريز الورك حافة الحق

اليه دواءً وربما التحم على فساد فيبقى قليلاً وينتقض والنكسة اشد من المرض فتبقى مدة متقاطعين ثم يعود كلانا على دغل منهُ

وكم من مرتدٍ (١) للصلح يوماً فلم ينجح بذاك الارتيادِ
لانَّ الجرحَ يُنقَضُ بعد حينٍ اذا كان البناءُ على فسادِ

وكم اتقاضى على كثيرٍ من الاشياءِ واتناسى كلما جرى واقول لعل وعسى . وكم اتأوّل واقول قد قال الاول

لعلَّ عتبَكَ محمودٌ عواقبُهُ فربما صحَّت الاجسامُ بالعللِ

فيرجع الى قبيحه الاول فاهجرهُ فيعود معرضاً بالسلام ملتمساً للمودة ولا يعلم ان من الحمق التماس الاخوان بغير الوفاءِ ومودة النساءِ بالغلظة والجفاءِ

فأما ان تكونَ اخي بحقٍّ فاعرف منكَ غثي من سميني
والا فاطرحني واتخذني عدوًّا اتّقيك وتتقيني

فاسمع واسكت واتغافل عنهُ وانا اشتغل فلا اشعر

(١) اسم فاعل من ارتاد اى طلب

الا وقد ضربني في مفصل ولا يعلم ان الفأس تقطع الشجر فترجع وتثبت والمبضع يقطع اللحم فيندمل واللسان لا يندمل جرحهُ ولا يلتئم قرحهُ والنصل من النشاب يعقب (١) في الجوف ثم ينتزع واشباه النصال في القول اذا وصلت الى القلب لم تنتزع ولم تستخرج ولكل حريق مطفئ للنار الماء وللسم الدواء وللحزين الصبر وللعشق السلوة ونار الحقد لا تخبو وقد غرس هذا الرجل بيننا شجرة العداوة ولولا انهُ قليل الحياء كثير العناء لكان اشتغالهُ بنفسه وشروعهُ في مداواة مرضهِ انفع لهُ فان المثل يقول اذا كان في جوارك جنازة وليس في ديارك دقيق وصبيانك جياع فلا تمضِ وتعزِّ جيرانك فمصيبتك اعظم من مصيبتهم قلت ياسيدي اي شيء فعل قال اضربْ عن هذا واستعذ بالله من مصائب الزمان والله لولا انهُ عندي كالولد ولا احب غيبتهُ والا عرفتك من مقابحهِ ما لا يظن ولا يتوهم

(١) يلتوي

أنهُ يمنع الناس من مخالطته لكننا نقطع حديثهُ لئلا نكون كالمغتابين لهُ قلت ياسيدي حاشاك من الغيبة لكن بقي لي شيءٌ واحد اسألك عنهُ قال قل قلت على من قرأ هذا الفتى ؟قال على اجلّ من وطئ الحصى ممن تمرض لعلوم القدماء لكن ماذا ينفع حضور العلة الفاعلة اذا لم توجد مادة قابلة كالكاتب على الماء كلما خط انمحى على انهُ والله قد تعب واتعب باكثارهِ القراءة والدراسة لكن يجب ان تعلم ان مراتب المتخالفين في هذه الصناعة ثلاث واحد يقرأ كثيراً ولا ينطبع فيهِ كالناقهِ الذي يظن انهُ بكثرة الغذاء يخصب ولا يعلم انهُ بقبول الاعضاء للغذاء والتصاقه يسمن لا بكثرتهِ فهو كلما اكل واكثر لم ينمِ جسدهُ ولم يتزيد وآخر يقرأ كثيراً ويفهم فهماً رديأً فهذا يجري مجرى المبطون الذي شأن غذائهِ ان يستحيل ورماً فيه تضعف قواهُ وتثقل اعضاؤهُ. والجهال في هذه الرتبة اثنان واحد يعرف قدر رتبتهِ ولا يتعدى وظيفتهُ لعلمهِ انهُ من المقصرين

فلا يتعدى وصف البزور والسكنجبين وآخر يزهو بجهله على غير علم كالوارم الذي يتظاهر بالشحم وهو لشدة ما يقاسيه في جهد وانشد

وقد يلبسُ المرءُ خيرَ الثيابِ ومن دونها حالةٌ مُضنيه
كما يكتسي خدُّهُ حمرةً وعلتها ورمٌ في الرّيه

ولهذا قال جالينوس الجهل بالجهل جهلٌ مضاعف وهب سلمنا لهُ بالعلم ماذا ينفعهُ بلا عمل فانهُ يقال ليس شيءٌ اهلاك للمريض من طبيب يحسن القول ولا يحسن العمل فان صاحب العمل وان قصر به القول في مستقبل الامر فسيبين فضلهُ عند الخبرة وعاقبة الامر وصاحب القول وان اعجب ببديهته وحسن صنعته لا يحمد غبُّ امرهِ . وان الطبيب الذي يعول في مداواة الامراض والمرضى على تنميق الكلام واقامة المعاذير يريد هلاك المريض من دون التدبير السديد كالذي يشرب السم اتكالاً على ما عندهُ من الترياق . فقد بان ان حسن العلم لا يتمُّ الا بالعمل واذا

عرف المريض دواءَ مرضهِ عند ما كان صحيحاً ولم يتداوَ بهِ لم يفتهِ علمه بهِ في صحتهِ ولم يجدله راحة ولا خفاً وبالضد ثم التفت الى تلميذه وقال قد شغلنا عن لذتنا بنبذة من ذكرهِ هات قدحي فملأوا الاقداح واقترح على المغني

قالَ لي عاذلي ولم يدرِ ما بي اتحبُّ الحياة ما عشتَ حقّا
فتنفستُ ثم قلتُ لعمري قد جرى في العروق عرقاً فعرقا
قد لعمري ملَّ الطبيب وملَّ م الاهلُ مني مما اقاسي والقى
ليتني متُّ واسترحتُ فاني ابداً ماحييتُ فيها مُلقىً (١)

فغنى وشربوا وطربوا وضرب الغلام هزجاً بهذه الابيات

يا ممرضي بغيبهِ ومعذبي برقيبهِ
يا مانعي بصدودهِ حلوَ المنامِ وطيبهِ
لِمْ لاتجودُ لعاشقٍ اسرفتَ في تعذيبهِ
اعيا الطبيبَ دآؤهُ فبكتهُ عينُ طبيبهِ

فصاح صاحب الدار وقال هذا وملحم الخروق

(١) اى لايزال يلقاه مكروه

ومجرى الدم في العروق لو كتب بالابر على البصر لرؤي احسن منظر فنهضت الجماعة وشربت قياماً سارًّا (١) لصاحب الدعوة . فتقدمت اليه منتهزاً للفرصة وقد هزته الاريحية وقلت هل لك ياسيدي ان تسقيني قدحاً ادفع عني به ضرر المضيرة وتشركني والجماعة في هذه المسرة فقال ان كنتَ مستحقاً لهُ قلتُ وبماذا اكون مستحقاً لهُ قال بان تخبرني عقيب اي حركتي التنفس تشربهُ أعقيب حركة الانبساط ام عقيب حركة الانقباض؟ فاذا شربتهُ اي حركة يتحرك القلب بعدها أضد ما قطعت عندها ام مثلها؟ فذهبت امسك نفسي لانظر ما هو الجواب وقال لي ما اشبه هذا منك الا بما حكاه ابن قتيبة في ادب الكاتب عن الذين لما سئلوا عن عدد الاسنان جعلوا ايديهم في افواههم ليعدوها ثم قال هذا

(١) السار المفرح ولعلها اللفظة التي طالما بحث عنها الادباء ليستعملوها في التعبير عما يكون في الولائم والمادب عند الشرب وقد استعمل بعضهم لفظة النخب فقال شرب نخبه والعامه تقول شرب سره

وما سألتك متى يكون نبض الجنين موافقاً لنبض الحامل ومتى لم يكن موافقاً ؟ ولا عن الانقباض أهو اقدم من الانبساط ؟ ولاعن العلة التي من اجلها اذا فتح الانسان شفتيه ونفخ نفخاً حاراً فاسخن الاشياء الباردة واذا ضمهما ونفخ نفخاً بارداً فبرّد الاشياء الحارة ؟ ولا عن العلة في ان النفخ البارد يلهب النار الكثيرة ويطفيء النار القليلة ؟ ولِمَ صارت حركة الشرايين والقلب واحدة وحركتهما وحركة التنفس مختلفة ؟ ثم قال لي أتعلم شيئاً من ذلك قلت لا قال أفتعلم ان منفعة الانبساط بالذات ادخال الهوآء البارد وبالعرض مصُّ الاشيآء المايعة كالماء والشراب والمرق والنقاعة (١) والتنخع وشم الروائح الطيبة ؟ قلت لا قال أفتعلم ان منفعة الانقباض بالذات اخراج الهوآء الحار واعداد هوآء الترويح وبالعرض تصويت الحيوان والكلام والسعال والزمر والنفخ للنار والجشآء والبصاق والفواق

(١) النقاعه من كل شيء الماء الذى ينقع فيه

ودفع الروائح الكريهة والاستنثار(١) وبجميعها يتمّ التثاؤب والضحك والبكاء والتنهد وتنفس الصعداء والتأفف والعطاس؛ قلت لا قال فاشرب قدحاً واحداً على جهة الرحمة لك فملأت قدحاً الى رأسه فقال جودت هذا كأنه خط الملاء بلا هامش قلت ياسيدي هذا الى الخط المستقيم فاغتاظ وقال ياغبي المستدير لا يكون عليه خط مستقيم لكن اما دأرة او قوس واخذ القدح من يدي فشربه وقال مجالسة الجاهل حمى الروح وانشد

لا انسَ الا في مجالسَ تلتقي بفنائها الاشكال والنظراء
ان الجهولَ تضرّني اخلاقهُ ضررَ السمالِ لمن بهِ استسقاء

ومثل ذلك قول المتنبي

واحتمال الاذى ورؤية جانيه م غذاء تضوَى بهِ الاجسامُ

وما احسن ما قال حكيم الفرس مقاطعة الجاهل توازي صلة العاقل. وبدأ وقد هزته الاريحية وقال أترى من لهذا

(١) الجذب

الامر بعدي ذهبت والله الصناعة البقراطية والعلوم الطبية وانقبضت اطرافها وتقطعت اهدابها فشخصها مأووف وطرفها مطروف وصار الطبيب اذا دخل على المريض فهو بين ان يفصده ان بعد عهده ويمنعه الفصد ان قرب عهده به ويسهله ان وقف طبعه ويحبسه ان سهل ويبرده ان سخن ويسخنه ان برد وينعاه اذا رآه قلقاً ويبشر بصحته اذا رآه ساكناً هادئاً كل هذا لانه المسكين لا يعلم ان كثيراً ما يكون القلق اصلح من السكون والاختلاط اصلح من التيقظ وسواد الاطراف اجود من بياضها وان كثيراً ما يستعمل الطبيب الدواء المسهل فيمن طبيعته ممسكة ليسهلها وان كثيراً ما يعالج الحار بالحار والبارد بالبارد ويستعمل مع المرضى ما يضعف الاحساس والقوة

القسم الحادي عشر

في استهانة العامة بالصناعة الطبية

ولولا عجز الاطباء عن هذه الامور لما استهان الجمهور

بالصناعة الطبية واستدلوا على نقضها من اراجيز الشعراء واقوال العامة فضربوا لها الامثال وسحبوا عليها اذيال المقال فواحد يقول

ما للطبيبِ يموتُ بالداءِ الذي قد كانَ يشفي غيرهُ فيما مضى
هلك المداوي والمداوَى والذي جلب الدواءَ وباعهُ ومن اشترى

وآخر ينشد

والناسُ يلحونَ الطبيبَ وانما غلطُ الطبيبِ اصابةُ الاقدار

وآخر يجرد ويقول هذا كله هذيان والذي اعلم ان ابن ثلثين سنة لا يموت ابن عشرين ولا يعلم ان هذه قضية قد قتلت مئة الف قتيل وآخر يقول الموت سبيل لابدَّ منه وانما الطبيب مطيبٌ للقلوب وهذا كلهُ جوابٌ لمن قال ان الطبيب ضامن درك الحيوة وان الطبيب يشفي سائر الامراض وآخر يقول مالي اعذب نفسي بالحمية هما فلان الطبيب ما يزداد بالحمية الا صفرةً (١) ومرضاً ولا يعلم

(١) نحولاً

انه لو لم يحتجم لمات وواحد يقول انا آكل واشرب واترك التداوي واتكل على الله وقائل ذلك اذا مرض له حمار قبل فيه بمشورة البيطار وكان يجب بحسب رايه ان يتركه ويتكل على الله . على ان الطبيب لا يامر بالتداوي وينهي عن التوكل على الله. وآخر يقول كم مرضت وبرأت بلا دواء ولا يعلم انه لو استطب لكان اسرع في برءه وانه سيأتي عليه وقت لا تفي فيه القوة لدفع المرض ولا يجد من الطبيب معاونة فيهلك . وآخر يقول كم قد تداريت واحتميت فلما خلطت برأت ولا يعلم ان التخليط صادف بالاتفاق فناء مادة المرض فبرأ وان اناساً كثيرين خلطوا قبل فناء هذه المادة فهلكوا وانشد

عابَ الطبيبَ اناسٌ لاعقولَ لهم وماعليهِ اذا عابوهُ من ضررِ
ماضرَّ شمسَ الضحى والشمسُ طالعةٌ ان لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

وهذه الطوائف الجاحدة لفضل صناعة الطب اذا سمعت

الطبيب يقول هذا الغذآء يضرُّ كذا يقولون كم قد اكلناهُ وما ضرنا وما يعلمون ان الطبيعة تحامي ما امكنها عن نفسها وتعجز عن المحاماة فتمطب ويقولون ما دام للانسان خبز عند الخباز فما يضرهُ شيء فاذا جآء ابوضابط ما ينفعهُ شيء ويسمون الخبز الحياة ومعطي الحياة الخباز ويكنون الموت ابا ضابط. واذا قيل لهم ان الترياق ينفع السموم قالوا ها الترياق وها الافعى من ادعى فليبرهن واذا ذكر النبض لهم قالوا هاتان امرأتان احداهما حامل والاخرى عاقر عرفونا احداهما من الاخرى من نبضهما يريدون من الطبيب ان يعلم من كل شخص ما هو معلوم الله منهُ على الحد الذي لا مزيد فيهِ ولا نقص منهُ ولا يقنعون بما لاح لعينه وتجلى لبصيرتهِ لانهم لا يفهمون ان هذه الصناعة تجيء بالممكن واذا عضدت بالتوفيق كانت كالضروري فليس لان احكامها ليست مدركة ومحاطاً بها في كل شخص يجب ان تكون مرذولة ومطروحة بل

تكون متوسطة بين ادراك البغية وعدمها وليس لان بعض المرضى هلك لا ينبغي ان ينظر في الطب ولا بسبب ان بعض المرضى برىء بالطب وجب ان يعول عليها في البرء ابداً والحكمة توجب توسط هذا الامر حتى يشكر الله من ينجو او تسلم نفسه من الهلاك ولهذا استصعب بقراط القضاء والبتّ بما يؤول اليه امر المرضى .وان رأوا طبيباً يقرأ في كتاب قالوا لهُ مستهزئين به أَفي هذا دوآء الموت؟ فاذا قال لا قالوا ما هذه الكتب الا خرافات صدرت من عجائز خرفات وما يزيد في أجل العالم علمهُ ولا ينقص في عمر الجاهل جهلهُ وما الامر الا كما قال ابو غسان الطبيب

حكم كأس المنون ان يتساوى في احتساها الغبيّ والالمعيُّ
ويحلُّ البليدُ تحتَ ثرى الارم ضِ كما حلّ تحتها اللوذعيُّ
أصبحا رمّةً تزايلَ عنها فصلها الجوهريُّ والعرضيُّ
وتلاشى كيانُها الحيواني وتوارى تقويمها المنطقيُّ

وهذا الكلام من الايجاز على غاية الاضمحلال والفساد

فليس تساوي الناس في الموت والفناء حجة في عدم البقاء والمراتب في الدار الاخرى والناس قد يتساوون في السفر الى المدينة ويتزينون اذا وصلوا الى المستقر بحسب المنزلة بما صحبهم من الذخائر والامتعة هذا بيان بحسب الاختصار وفيه كفاية ٠ ويعظمون السيطرة على الطب لانسهم بالبهائم وشبههم بها وينظرون بالمحبرة (١) ويسمونها خرزة الشوم ومحرفة (٢) الحرفة واذا رأوا طبيباً مكباً على العلم قالوا مقرون بالحذق ضيق الرفق (٣) واذا تكلم ودقق في مسألة قالوا سوداويٌّ اعتقاداً ان العلم يخرج الى الجنون فان لم يفهموا ما يقول قالوا هذه زندقة فان نظرهُ فريقٌ منهم انشد الفريق الآخر

وماتنفعُ الآدابُ والعلمُ والحجى وصاحبها بعد الكمالِ يموتُ

(١) الدواة
(٢) الة الكسب
(٣) اى الانتفاع يقال ارتفقت به اى انتفعت به

ولا يقولون في الاغذية حارة وباردة لكن هذا غذآء ميال يريدون مستحيلاً كالبطيخ وهذا بطبع الموت اي انه بارد يابس ويسمون الرطب ليناً ويقولون ان المشمش بطبع الحمى والبلوط قولنج وهذا كلهُ قريب وانما المصيبة العظمى اعتقادهم في الكافور والثلج انهما حاران وفي الرازيانج(١) والحناء انهما باردان وان ماء الشعير بطبع الصفراء كلهُ هذا من عجز الاطباء وقلة خبرتهم بكتب القدماء فانقرضت الصناعة وهي نظام سلكها وأخلق جديدها وتفرق ايدي سبإ عديدها فهانت في النفوس ودبرت (٢) عند الناس وخلت من الفضلاء فصار الآن يتماطاها القوابل وقوام (٣) الهياكل ويتمادون (٤) في

(١) بقله وقيل هو الانيسون وقيل الشمر
(٢) ماتت
(٣) جمع قيم
(٤) اعتاد الشي اتابه اى صيره عادة لنفسه يقول انهم اتخذوا عادة لانفسهم ما يصفه الاطباء للمرضى

صفات الاطباء فذهب رونقها وأخلقت بهجتها وصارت كالفضل الذي لا يحتاج اليهِ وبطل الطب البقراطي وظهر طب لم يأمر الله سبحانهُ على السنة اصفيآئه بشيءٍ منهُ . فبينما هم في الكلام اذ طرق الباب مريض فاذن لهُ في الدخول فلما حضر سلم وجلس واستأذن في وصف ما يجدهُ فاذن لهُ فقال ياسيدي اني اجد نشفاً في فمي ورياحاً في أحشآءي واعتقالاً في طبعي وبصاقاً وبلاغم في معدتي ورطوبات تسيل على مخدتي واذا شربت البارد ازداد لهبا واذا شربت الحار سكن في الحال اكثر ما اجد ومع هذا بينما تراني ضاحكاً حتى عدت باكياً . آمالي قصيرة وافراحي يسيرة همي قليل وغذآئي كثير حشاي يحترق وبولي ابيض يقق . واذا شكوت ما بي الى الاطبآء نسبني بعضهم الى الكذب ولم يزدني آخرون على تحريك الرأس والعجب . قال الشيخ هذا مما كنا فيهِ قد صدقتَ في جميع ما ذكرتَ وهذا مرض ينفع فيه العلاج بالاشيآء

الحارة ولكل ما ذكرتَ اسبابٌ واضحة يحتاج شرحها الى زمان ممتد وتفريغ قلب وعقل جيد فمول على الحمية وعد اليَّ دفعة ثانية فودعنا وانصرف فاومأ الى تلميذه وقال غنِّ صوتاً فاندفع يغني

منّيَ للكرى وطيفِ الخيالِ جددتْ بيننا عهودَ الوصالِ
كان قد ساعد الرقيبُ بها لو م لا فضولُ السوارِ والخلخالِ

فالتفت اليه مغضباً وقال اين نذهب بك ؟أهذا من اقتراحات الاطباء واصوات الحكماء ؟ أما علمت انهُ قبيح بالمغنى ان يغني في تموز

قفي بالله يامطرُ فكثرة ما يجي ضررُ

وقبيح ان يغني بالعشى

تصبح بوجه الراح والطالع السعدِ

وقبيح بانه يغني في العرس

احسن ما كان تفرقنا فخاننا الدهر وما خِنّا

وقبيح ان يغني لشريف

لك عيدُ الصليبِ تلعبُ فيه ولنا المهرجان والنيروزُ

ثم قال غنِّ احد اصواتي التي اقترحتها في مبدإِ سكري فاندفع وغنى بشعر العباس بن الاحنف

زعموا لي انها باتت تُتم ابتلى الله بهذا من زعمْ
اشتكت مما بهِ كانت كما يشتكي البدرُ اذا ماقيل تم
ايت بي شكواكِ ياسيدتي فلكِ الاجرُ وان طال السقمْ

فشربوا وملأُوا الاقداح فهزجه في شعره ايضاً

يا ايها المحمومُ نفسي فداكْ مالي من الدنيا سرورٌ سواكْ
قد كان بي سقمٌ وقد زادني سقمُك سقماً وبلاني بلاكْ
فليتني حُمّلتُ عنكَ الذي تلقى لكي يُجمعَ هـذا وذاكْ

فطرب ابو ايوب الكحال وقال اسمعوا يا اخوان الصفآء وبقية العلمآء فوحق منشىء الطبائع ومبدىء البدائع لو كتب هذا بالمباضع في المسامع وقع اجل المواقع فشرب القوم وطربوا وزاد الشيخ في حد الانتشآء فلما دبت فيه حميا الكأس وانتشرت منه في المفاصل والرأس

اخذ في هذيانهِ وبث اشجانه وقال ياخي قد تعبتُ في جمع العلم وكددتُ نفسي في قرآءة الكتب وما بلغتُ بصناعة الطب غرضي من الكسب وسبب ذلك ان مروءات الناس قد سقطت ونفوسهم قد خست وصغرت وقد مضى العمر وكبر السن وانا ماضٍ وما اخلف ولداً يحيي ذكري ولا حميماً يبكي على قبري وتمثل بقول الاول

تذكرتُ من يبكي عليَّ فلم اجدْ سوى مجلسي في الطبِ والعلم والكتب

ثم ارخى عينيهِ ساعة بالبكآء وانصرف القوم

القسم الثاني عشر

﴿في خاتمة الكتاب وذكر سبب انقطاع الزيارة والاجتناب﴾

وبقي ابو جابر تلميذهُ فالتفت الى غلامهِ وقال اسقني قدحاً وقال غنني بقول الشاعر

يموتُ راعي الضأنِ في جبلهِ ميتة جالينوسَ في طبّهِ
وربما زادَ على عمرهِ وزادَ في الامن على سربهِ

ثم مال على جنبه نائماً فنهضتُ على رجلي قائماً

فلما هممتُ بالانصراف قال لي الغلام أتمضي ياسيدي وتتركني وهذا المسكين الذي قد كدَّ يومهُ وغنى حتى يجَّ حلقهُ جائعين. فقلتُ وما سبب جوعكما وفي الدار طعام فقال متى انصرفتَ لم اتجاسر على سقيهِ ولم اقدر على التعرض بهِ وان اقمت احتججتُ بك ودخلتُ انا وهذا الفتى في غمارك (١) فصفعت نفسي الى اطعامهما وسقيهما فيضاً (٢) من شحهِ ومكافأةً على بخلهِ فاعاد الحمل وقدم الطبق فلم نبق ولم نذر. وعدلنا الى الفالوذج فانثنينا على بقيتهِ وملنا نحو الشراب فشربنا فضلتهُ وغنى ذلك الفتى

نُبئتُ ان النارَ بعدكَ أُضرِمتْ واستبَّ بعدكَ يا كُليب المجلسُ

وتحدَّثوا في أمرِ كلِّ عظيمةٍ لو كنتَ شاهدهم بها لم يبسوا

وطاب الوقت واتصل الشرب . بينا فيما نحن على

---

(١) يقال دخلت فى غمار الناس اى فى زحمتهم وكثرتهم واصله من الغمر وهو الستر والتخفية

(٢) مصدر غاض الماء اى نقص وقل ونضب

هذه الحال اذ رفع الشيخ رأسهُ متيقظاً فلما رأى وقد تفرغ الجام من الحلوآء وابيضت عظام الشوآء قال ما هذا التبسط في منزلي والتحكم في مطعمي ومشربي . قلت تذكرتُ قولك قال وما هو قلت

أُضاحكَ ضيفي قبل إنزال رحلهِ فيخصبُ عندي والمحلُّ جذيب

قال الاشرار يتبعون مساوىء الناس كما يتبع الذباب المواضع الفاسدة من البدن. قلت ياسيدي ما تناولنا منهُ الا القليل وكنا قادرين على الكثير . قال صدق افلاطون في قوله « لا تصحبوا الاشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم » أما تعلم ان كل اصفهان يأتي على الجمال ويفنى بالاميال قلت ياسيدي انت دعوتني الى منزلك وعرضت عليّ طعامك وشرابك فما زرتهُ مثقلاً ولا حضرتهُ عندك متطفلاً قال قد فعلتَ ما هو اقبح من التطفيل واصعب من التثقيل لانك حرزتني (١) من نفسك

(١) اى جعلتنى احترز

وزعمت انك لا تقدر على شرب الشراب وادراك تكرع منهُ بالارطال والاقداح والذنب لي في الاغترار بك والانخداع لك . ثم استوفى على نفسه اليمين انه لا يضيف غريباً بقية عمرهِ ولا يأذن لاحد في دخول منزلهِ فنهضتُ من عنده وغبتُ عنه عدة ايام وعاودت دارهُ فاذا بهِ مراعياً للطريق من شباك فلما نظرني صاح ياغلام احفظ الباب والممرق فقد ورد الغرار المملق (١) واخاف ان يلج الدار ويتسلق . فلما رأيتهُ بدأتهُ بالسلام وغمرتهُ بالاعظام والاكرام فاعرض ولم يرد السلام فانشدت

كأنْ لم يكنْ بين الحجونِ الى الصفا انيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامرُ

فقال الشيخ

بَلى نحن كنا اهلها فأبادنا صروفُ الليالي والطبيبُ المسافرُ

ثم قاطعني واغلق باب الشباك فكان آخر عهدي به

(٢) من املق اى افتقر والغرار صيغة مبالغه من غره غروراً وغرة خدعه واطمعه بالباطل

قد وفينا بما ضمنا بقدر ما جادت به القريحة وساعدته عليه العبارة وجعلنا الهزل طريقاً الى الجدّ اذا كان الانسان متردداً بين الحس والعقل. وقد ذكرنا اسماء غير دالة على اشخاص معروفين ليصل الفهم الى القاري، بهم على وجه المجاورة ووسعنا الكلام لان اللسان اذا وجد مسرحاً لم يقف الخاطر واذا أصاب سخاءً لم يكف على اننا لو اردنا فرش الكلام لتعرضنا لحدوث الملال والسآم. ونرجو ان يكون ما اتينا به مدركاً لرضى من حث على نظم منثوره وجمع منتشره. والله نسأل ان يخرجنا من هذا الفناء المحشو بالعناء بعد العناء (١) الى حضرة القدس ومقر الانس مع مراد النفس في ملكوت السماء حيث لا يتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب انه سميع مجيب

تمت الرسالة بحمد الله ومنه وحسبنا

الله ونعم الوكيل

(١) الفناء الذل من عنا يعنو والعناء التعب

تاريخ الدولة العلية

العثمانية

الدكتور محمد فريد

obeikandl.com

المقدمة

ترى أيُّها القارئُ اللبيب أنَّ هذا الكتاب وقد تمثَّل لك في صورةٍ منْ حسن الطبع يرتاح اليها النظر . وتجمل بتصحيح عبارتهِ وتهذيب بعض الفاظهِ على طريقةٍ لا يحبُّها الذوق ولا ينبو عنها البصر . حريٌّ بأن تحلَّهُ محلَّ القبول والاستحسان . وتفسحَ لهُ من بصيرتك النقَّادة مجال التروّي والامعان . وتتدبَّر بما تضمنهُ من الحكَم الناصعة . وتعمل بنصائحهِ النافعة . وتستفيد من آدابهِ الرائعة . واذا شئت ان تعفيني من تنميق الكلام وتطريزه . في مدحهِ وتقريظه . تحاشياً من ترديد النغم الواحد لثقلهِ على السمع . وتنكباً عن خطة التحدّي لانها صارت نافرةً على الطبع . فلستُ أُعفيك من ان ترجع معي القهقرى تسعةً من القرون . وقد تقلَّص ظلُّ الدولة العربية عن بغداد دار العلوم والفنون . لترى كيف يكتب المصنف بلغة ذلك العصر . روايةً كما نوَّر الزَّهر . موَّهَ بها الجدَّ بالنكات الهزلية . وضمَّنها من الحكم الفلسفية . والوصايا الصحية . والمسائل الطبية . مايستفيد بهِ كلُّ انسان . فكأنها تنطق بكل لسان . او كأنهُ من ابنآء هذا الزمان . وقد ألتفَّ حواليهِ المخرقون . وهو يحاول تقويم المنآد

واصلاح الشؤون

واذا كنت

لا ترى ,, الاوائلَ ,, شيئاً وترى للأواخر التقديما

فلا يسعكَ ان تنكر

ان هذا القديمَ كان حديثاً وسيبقى هذا الحديثُ قديما

فربَّ قضيةٍ مسلمةٍ الآن . ستُنقَضُ في مستقبل الزمان . لعدم تحققها بالبرهان . وثبوتها بالعيان . ولا مراءَ في أنَّ العلم قد وشجت لهذا العهد أعراقهُ في تربة التحقيق . واخضلّت اوراقهُ بعد اذ سُقي بماءِ التمحيص والتدقيق . على ان فضل القدماءِ لا يُنكَر والاغضاءُ عن بيان فضلهم لا يُشكر . فنحن انما بنينا على اساسهم . واهتدينا بنبراسهم . على ما سيتضح في هذه المقالة التي اقترحها عليَّ بعض الاصحاب . فلم اجد ندحةً عن الاجابة رغبة في تعميم الفائدة للطلاب

وان تكن محكمات الشكلِ تمنعني ظهور جريٍ فلي فيهنَّ تصهالُ

لكن رأيتُ قبيحاً ان يُجادَ لنا وانفا بقضاءِ الحقِّ بُخّالُ